

قطاع الثقافة

د. مصطفى محمود

تأملات فى دنيا الله

كتاب اليوم

تأملات فى دنيا الله

د. مصطفى محمود

سر الحياة



نظرية داروين .. أصبحت الآن من المعلومات الأولية التى يتعلمها التلاميذ فى المدارس الإعدادية والثانوية .. ومن النكت الدارجة فى المجلات ومن الموضوعات الشائعة التى تصاغ حولها القفشات الصحفية .

إلى هذا الحد أصبحت مادة يومية مسلية .

ومع هذا ، فإنها لم تكن فى نظرى أبدا شيئا مسليا .

ومنذ قرأت لداروين وأنا أسأل نفسى كل يوم : هل فسر لنا هذا الرجل سر الحياة حقا .. وتعالوا معى نتناقش .

داروين يقول ببساطة : إن الكائنات الحية فى محاولتها لأن تكيف وتتلاءم مع البيئة .. طورت أعضاءها لتواجه الاحتياجات المتعددة التى تتطلبها تلك البيئة .

الحيوانات التى نزلت الماء نشأت لها زعانف وذيول وخياشيم.. والحيوانات التى اقتحمت الهواء نشأت لها أجنحة وريش وأجسام

انسيابية خفيفة .. والحيوانات التى اختارت الأرض لتدب عليها نشأت لها أذرع وأرجل وأصابع .

وهكذا تعددت الأنواع ونشأت تصانيف مختلفة من الحيوانات كل منها مجهز ليواجه بيئته .. وتطورت الحياة التى بدأت بخلية واحدة تقوم بكل الوظائف إلى حيوانات عديدة الخلايا راقية متخصصة .. ونشأ الحيوان الذى يستطيع أن يواجه بيئته الصعبة المعقدة ويعيش فيها ويصارعها .

وفى أثناء هذا الصراع الطويل كانت الأنواع التى تعجز عن التكيف تموت .. وكانت الأنواع التى تثبت صلاحيتها ، وملاءمتها تعيش ، وبهذا قامت الطبيعة بنفسها بعملية اختيار الأصلح والأنسب واستبعاد الأضعف والأقل ملاءمة بدون نظر إلى أى اعتبار آخر .

ونشأ الإنسان فى قمة هذه السلسلة الحيوانية وتفوق عليها جميعها ، وحكمها بفضل قدرته الهائلة على التكيف، وهى القدرة التى زوده بها جهازه العصبى الراقى وعقله الذى دله على اختراع سبق به كل الحيوانات هو اختراع الأدوات ... فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى لا ينتظر أن تتطور ذراعه لتصبح فى قوة الأسد ليصارعه، وإنما هو يخترع الخنجر والبندقية ويضربه .. وبالمثل لا ينتظر أن ينمو له جناح ليطير وإنما يخترع الطائرة .. ويخترع السفينة .. ويخترع الغواصة .

هذا هو كلام داروين ..

وواضح أن الارتقاء والتقدم له فى نظر داروين معنى واحد فقط هو نشوء أنواع أكثر ملاءمة من أنواع أقل ملاءمة .. ونشوء

أنواع قادرة على التحكم فى بيئتها من أنواع قليلة الحيلة .

إنها مسألة ارتقاء فى القوى المادية لا أكثر ولا أقل .. والتطور لا يحكم اتجاهه إلا هذا الحافز الطبيعى وحده .

الحياة تتجه إلى مزيد من القدرة .. مزيد من الكفاءة .. مزيد من السيطرة على بيئتها .

هل هذه هى كل القصة .. أبدا .. هناك جانب مهمل تماما فى الحكاية .. فالحياة تتجه أيضا إلى الأجمل .. فالأجمل .. وهذه ملاحظة لا وجود لها فى نظرية داروين .. وليس فى كلامه ما يفسرها .

لماذا يخرج من عائلة الحمار شىء كالحصان .. أو من فصيلة الوعل شىء رقيق كالغزال .. الحصان ليس أكثر احتمالا من الحمار بل هو على العكس أقل جلدا واحتمالا .. والغزال بالمثل أضعف وأرهف وأقل جلدا واحتمالا .. وبالمثل الفراش الملون الرقيق أبطأ وأضعف وأقل قدرة من الزنبور الطنان الغليظ الشكل .. والحمام واليمام والطواويس والعصافير الملونة .. أكثر رهافة من الصقور والحدادى والنسور .

ونشوء هذه الأنواع لا يمكن أن يفسره قانون بقاء الأصلح .. وإنما قانون آخر هو بقاء الأجمل .

أجمل فى عين مَنْ ؟

إنها كانت موجودة قبل الإنسان .

أجمل فى عين بعضها البعض ؟

وهل يتذوق الحيوان الجمال .. ويشعر به ؟

أم أجمل فى عين الخالق الذى أبدعها وتفنن فيها ؟

أم هو اتجاه إلى الجمال .. اتجاه مجرد من أى هدف .. جمال مجرد غير مقصود أن يراه أحد أو يستمتع به أحد .. جمال من أجل الجمال .

إن الجمال قيمة مبثوثة فى الوجود كله .. قيمة لا تستطيع نظرية مادية أن تفسرها .

الوجود الميت فيه جمال .. والوجود الحى فيه جمال .

الذرة فيها معمار وهندسة وتوزيع رشيق متوازن للإكترونات والبروتونات .. والنبات فيه تنوع هائل غنى فى الزهور والعطور والألوان والأشكال الشجرية الساحرة.. دراسة عابرة لأوراق النبات تكشف لك عن تصانيف عجيبة وموديلات لا آخر لها غاية فى الرقة والذوق كأنها رسمت بيد فنان عبقرى .

وفى الطيور وفى الفراش وفى عالم الحشرات والزواحف والحيوانات المائية والبرية .. ملايين الأشكال الجميلة الرقيقة التى لا يمكن أن تكون قد خلقت من أجل الكفاءة أو الاحتمال أو بقاء الأصلح، وإنما هى خلقت من أجل الجمال والجمال وحده .. فالجناح المنقوش لا يمكن أن يكون أكفأ للطيران من الجناح غير المنقوش .

إنها إذن مسألة جمال .. شياكة .

فى الطبيعة قوى تحرص على تجميل مخلوقاتها مثلما تحرص على قوة هذه المخلوقات .

أى قوى هذه التى تؤثر فى التطور .. وتخلق هذه الصور الفاتنة وما دوافعها ؟

داروين لا يتكلم .. ونظريته لا تجيب .

هل هو تطور شبيه بالتطور الذى حدث فى فكرة المحرك الآلى الذى انتهى بظهور تصانيف مختلفة من هذه المحركات كالقطار والترام والأتوبيس والتروللى باس والديزل والمحرك النفاث .. حتى هذه التصانيف رسم لها الإنسان هياكل جميلة فيها ذوق وفن .. ولم يضع فى اعتباره مسألة الاحتمال ولا الصلاحية وحدها .

إن الجمال ملغى تماما من تفكير داروين .. وكأنما هو شىء لا وجود له .

داروين يفهم الحياة كمادة ويفسر تطورها بدوافع مادية .

ولكن الواقع يؤكد فى جميع الأحوال شيئا أكثر من هذا .. فالحياة ليست مجرد مادة مندفعة لتوكيد ذاتها وفرض سيادتها على البيئة . وإنما فيها شخصية وجمال .

والجمال قيمة وليس مقدارا يقدر بالكم والوزن .

الجمال قيمة مرتبطة بالذات .. بالروح المدركة، ولا يمكن فصلها عن الحياة لأنها أصيلة فيها .

وكل نظرية تفسر الحياة كمادة دون أنْ تفسرها كقيم جمالية هى نظرة ناقصة .

وأنا لهذا أشك فى نظرية داروين وأشك فى أنها كشفت لنا كل الحقيقة .



لحظة هدوء

من فضلك!

الباحث عن لحظة هدوء فى هذا الزمان لا يجـدها .. إذا فـتح الراديو تنهـال عليـه تشنجـات قـادة إسرائيل، وأخبـار الزلازل والسيول والأعاصير .. وإذا فتح التليفزيون تنهمر عليه مسلسلات العنف والبـاتمان وحـرب النجـوم .. وإذا طالع صحف الصبـاح تفاجئه أخبار انهيار البورصة وجنون البقر والإيدز وإذا بحث عن موسيقى يريح عليها أعصـابه أو أغنية تهدأ لها عواطفه نزلت عليه لقطات الفيديو كليب تتقافز صـورها وتتشنج رقصاتها وتتسارع إيقاعاتها فى إزعاج متـواصل .. وإذا فتح الشباك قرقعت فى آذانه أبواق السيارات وأصوات الميكروفونات وصراخ الباعة ..

وإذا أغلق الشباك ونزل إلى الطريـق خنقه الزحام .. وإذا انطلق هاربا إلى الأتوبيس لـم يجد مـوقـعـا لقدم .. وإذا حـمل أوراقـه وشهاداته وأسرع ليتقدم لوظيفة وجد طابور طلاب الوظائف يسد الشارع .. وإذا بحث عن شـقة لم يجد ثمنهـا .. ولا احتمال قـريبا

فى عمل، ولا أمل فى زواج، ولا أمل فى حل سريع يأتى من السماء .. وفى آخر المشوار يسقط فى يده .. ولا يجد حلا سوى أن يعود أدراجه إلى البيت إلى فراشه أو إلى ستين سنة إلى الوراء إلى ماض بعيد وإلى جيل انتهى .. إلى الشدو الهادىء فى صوت أم كلثوم .. وإلى الحنان الرخيم فى صوت عبد الوهاب ... وإلى دندنة هادئة مع العود .. بدون فيديو كليب .. وإلى الجمال البكر بدون افتعال .. وإلى البساطة العذبة بدون صنعة .. وإذا مس زرار الراديو فى ذلك الزمان البعيد، فإنه سوف ينقله إلى شوبان.. إلى الحلم .. والخيال الناعم .. والسماوية الرحبة .. والشوارع أيامها خالية .. والمواصلات مريحة .. وشقق للإيجار تتدلى لافتاتها من النوافذ .. والمرتب يكفى وزيادة .. وجلسة على شاطىء النيل هى كل المراد .

ماذا حدث للدنيا ؟!! ولماذا يصرخ المغنون .. ولماذا يتشنج الراقصون ؟! ولماذا هذه الإيقاعات المزعجة والموسيقى النحاسية التى تخرق الآذان ؟!

هذه الأمور تفصح عن فقر فنى ... وذوق فاسد .. وبلادة سمعية ... ما ضرورتها لصوت جميل بالفعل ؟!

وهذا التسويق الفج ... ما الداعى إليه .. لولا سوء البضاعة ورخص الموهبة ؟ .. واضحكوا معى على الغلاء الطاحن ... مع رخص الناس .. ورخص الفن .. وانعدام القيم .. وتفاهة البضاعة .

إننا معاقبون يا سادة بهذا الضنك .. وتأملوا كلمات ربكم :
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) ﴾ [طه : ١٢٤]

أليس عالم اليوم قد تلخص كله فى هذه الكلمة البليغة .. « الضنك » .. « والإعراض » ؟! أليس العالم قد أعرض تماما عن كل ما هو ربانى وغرق تماما فى كل ما هو علمانى ومادى ودنيوى وشهوانى وعاجل وزائل ... والكلام على مستوى العالم كله !

الكل متعجل يريد أن يغنم شيئا وأن يلهف شيئا ... لا أحد ينظر فيما بعد .. ولا فيما وراء ..

الموت لا يخطر ببال أحد .. وما بعد الموت خرافة .. والجنة والنار أساطير .. والحساب حدوتة عجائز .. والذين يحملون الشعارات الدينية .. البعض منهم موتور والبعض مأجور ... والمخلص منهم لا يبرح سجادته ويمشى إلى جوار الحائط .. فهو ليس مع أحد .. وليس لأحد .. وإنما هو مشدود ومنفصل عن الركب .. ومشفق من العاقبة .. وهو قد أغلق فمه واحتفظ بعذابه فى داخله .. واكتفى بالفرجة .

والناس فى ضنك .. وكل العالم أغنيائه وفقرائه .. كلهم فقراء إلى الحقيقة .. فقراء إلى الحكمة .. فقراء إلى النبل .

وأكثر الأنظار متعلقة بالزائل والعاجل والهالك .

والدنيا ملهاة .

وهى سائرة إلى مجزرة . فالله فى الماضى كان يوقظ خلقه بالرسل والأنبياء .. واليوم هو يوقظهم بالكوارث والزلازل والأعاصير والسيول .. فإذا لم تجد معهم تلك النذر شيئا ألقى بهم إلى المجازر والحروب يأكل بعضهم بعضا ويفنى بعضهم بعضا .

وحروب المستقبل حروب فناء تأكل الأخضر واليابس وتدع

المدن العامرة خرابا بلقعا .

ونحن على حافة الرعب والصراع المفنى .. وماذا يهم ؟! ماذا يهم ؟!

فالمغنية تغنى وتتلوى على المسرح .. فى إيقاع أفعوانى .. تحت بقعة الضوء .. والألوف يرقصون كالأشباح فى الصالة دون وعى..

ماذا تقول .. ؟!

لأحد يصغى إلى ما تقول ... وإنما الكل يصرخ ويصفق ويهتف ويتلوى كأفاع مسحورة .. والطبول والدفوف والإيقاع الهمجى قد حول الكل إلى قطعان بدائية ترقص فى شبه غيبوبة .

ولا تملك وأنت تستمع معهم إلا أن تفقد اتزانك وقدميك ثم تصبح جزءا من هذا اللاوعى المفتون .. وقد خيم على الجو إحساس الكهوف البدائية .

هل انتهت الحضارة فجأة .. وعدنا إلى كهوف الإنسان الأول؟!

هل تبخر العقل .. ولم تبق إلا غرائز تعوى وتتلوى على الطبول والدفوف ؟! .. يا سادة .. تلك هى نهاية علمانية اليوم .

وتلك هى احتفالية العالم بنهاية الإيمان .

احتفالية بالعقل الذى أسلم نفسه للهوى .

والحكمة التى نزلت عن عرشها للغرائز والإنسان الذى أسلم قياده للحيوان .

وماذا يهم ... ؟!!

لا شئ يهم ...!!

إننا نرقص اليوم للفجر .

وليكن غدا ما يكون .

هكذا تعلمنا فى سهرات « الدش » وإبداعات مادونا وجاكسون وفنون الموجة الشبابية الجديدة وبرامج الأقمار والفضائيات القادمة علينا من أمريكا وأوروبا .

وذلك هو العصر العجيب الذى نعيش فيه ..

أمريكا ـ القطب العملاق الذى يحكم العالم ـ تخصصت فى صناعة الغيبوبة لشباب هذا العالم .. عن طريق أفلام الحب والعنف والرعب وأساطير الخيال العلمى وعن طريق الرحلات الفضائية والصواريخ المنطلقة إلى القمر والمريخ وزحل والمشترى.. وعن طريق ترسانة كيميائية تنتج عقاقير الهلوسة وإكسير الشباب والفياجرا ومن أمريكا خرجت أكذوبة الميلاتونين.. ومن أمريكا خرج الديسكو والجاز ونوادى الشواذ .. ومن أمريكا انتشرت صناعة الغيبوبة لتصبح صناعة مقررة فى أكثر الحكومات وسلاحا مشروعا تحارب به الأزمات وتشغل به الشعوب عن متاعبها .

سلاح اسمه « الهروب اللذيذ » .. على أنغام الموسيقى والديسكو وعلى رقصات المادونا .

ولا أحد يكره أن يهرب من مشكلة فى ساعة لذة وإغماء غيبوبة بل كل مراهق يحلم بهذا الهروب اللذيذ ويسعى إليه .

وهذه الفكرة الإبليسية هى التى يدير بها الكبار العالم .

وحرب الخليج كانت هى « النهب اللذيذ » لبترول الخليج وثرواته .. ولكن الاسم المعلن لهذا النهب كان شعارات مبهرة عن تحرير الشعوب ونجدة الضعفاء ونصرة الديمقراطية وإعادة

الشرعية ..إلخ .. إلخ .. إلى آخر الأسماء الجذابة الخلابة التى تدير الرؤوس وتسكر النفوس .

والإعلام هو دائما الأداة الإبليسية لهذا النهب اللذيذ .. والاستعمار اللذيذ .. والهروب اللذيذ ..

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم]

وما أعجب ما يصنع القلم .. وما أعجب ما يسطر ذلك القلم الذى يميت ويحيى ويسحر ويفتن، ويوقظ وينيم، ويبنى ويخرب ويهدى ويضل .

وهناك الآن أقلام عظيمة تجيد صناعة هذا « التيه » .

ومؤسسات عالمية تصنع للشعوب الدوار .. وتتفنن فى تسمية الأشياء بغير أسمائها وتسبغ هالات المجد على تفاهات .. وتروج للجريمة والشذوذ وفنون الغيبوبة .

وأصبح من لزوميات هذا العصر أن يكون فى أذن كل مستمع « فلتر » وفى عين كل مشاهد « فلتر » لكشف الزيف فى الكلمات والمرائى والمشاهد .. خاصة فى المشاهد العسل .. والكلمات العسل .. والوعود العسل .. التى يقصد بها النوم فى العسل ..

وإذا فتحت الـ C.N.N أو أى محطة اجعل هدفك هو البحث فيما وراء ما تسمع .. البحث فيما وراء المقاصد .. وفيما وراء الأهداف من كل كلمة وكل خبر ولا تحسن الظن .. فإن سوء الظن الآن هو من حسن الفطن .

ولا تنم على الشعارات والأمانى والوعود الطنانة فقد لا تصحو ولا ترى تحقيق تلك الوعود أبدا .. وقد تفاجأ بها تنقلب إلى ضدها . مثل وعود نتانياهو واتفاقات أوسلو ومدريد وشعارات

حقوق الإنسان التى يطلقها القطب الأمريكى الأوحد، وضع كل هذا الكلام فى سلة المهملات وانظر فى الأفعال وسوف ترى .. الأرض فى مقابل السلام تصبح : الأمن فى مقابل السلام، ثم السلام فى مقابل السلام، ثم السلام فى مقابل لاشىء .. وهذا هو الفيديو كليب السياسى .. واتفاقات « القص واللزق » كل يوم على مقاس الوعى العربى .. والصف العربى .. واللى مش عاجبه يشجب .

وهذا هو التياترو السياسى العالمى فى هذا العصر والمسرح الإعلامى الآن يضاء من جديد والصالة تضج بالتصفيق والهتاف والمادونا الفاتنة تتهادى فى ضباب الأضواء برقصها الأفعوانى .. والموسيقى تدير الرؤوس وتسكر النفوس والطبول تدق بإيقاعها الهمجى والدفوف ترتعش لتأخذ الكل فى دوامة من الدوار اللذيذ .. إنها مونيكا .

وجرعة أخرى من عقار الغيبوبة السحرى تتسلل إلى العروق وتلف الكل فى غلالة من النسيان .

وبوركت ليالى الأنس يا صاح .. فما عاد أحد من الحضور يعرف نفسه ولا عاد أحد يدرى بمكانه .. أو زمانه أو حضوره أو ماضيه أو مستقبله ..

ولا شك أن التليفزيون جهاز خطير يدخل كل بيت ويفعل بنا أكثر من هذا.

هذه العلبة السحرية .. وهذا الأصبع الذى اسمه الريموت كونترول .. تضغط على زرار فتستدعى فرقة راقصة من الفولى برجير تأتى لترقص لك شخصيا .. وتضغط على زرار آخر فتستدعى بها ألفيس بريسلى من قبره ليغنى لك روائع أنغامه

وضغطة أخرى تستدعى بها كوكتيل من الأكاذيب السياسية فى أحلى عبوات من الكلام على لسان أكبر الشخصيات العالمية يلبس فيها الباطل ثوب الحق وتختلط المفاهيم وتنقلب المعانى فى عقلك ويلقى بك فى متاهات من التزييف الحلو الجذاب الناعم ولا تعود تفهم شيئا ..

وهذا هو الإعلام الإبليسى فى عصرنا وحينما تطفىء تلك العلبة الشيطانية .. تكون قد أصبحت رجلا آخر دون أن تدرى ..

وهذا هو عصرنا .. ولا أحد محصن .. ولا أحد معفى من هذه المطاردة الخفية لتشكيل أفكاره وزلزلة نفسه ومحو قيمه ومثالياته .

والفضاء حولنا يحتشد بهذه الجيوش غير المنظورة التى تهاجمنا صباح مساء ولكل دولة كبرى مصالح .

ولكل دولة كبرى أغراض .

ولكل دولة كبرى مطالب منك ومن بلدك وأطماع فيك وفى بلدك .

وصناعة الغيبوبة وغزو العقل والاستيلاء على الفكر قبل الأرض أصبحت صناعة العصر .. والتحكم عن بعد فى الشعوب أصبح لعبة الكبار والصغار .

هل تجاوزنا السياسة أم أننا لا نزال فيها ؟! بل نحن فى قلب «المطبخ السياسى » الذى تطبخ فيه توجيهات الشعوب واهتماماتها وتطبخ فيه مصائرها .

واقرأ الفصل من جديد لتعرف أكثر .



هذيان ليلة صيف !

لو أننا نزلنا على المريخ فوجدنا جنساً راقياً من المخلوقات فى مصاف الأنبياء والملائكة والسوبرمان، مخلوقات سامية نحن بالنسبة لها كالقرود بالنسبة للآدميين.. مخلوقات من لحم ودم ولكن لحمها من مادة راقية أخرى غير مادة البروتين وعظامها من غضاريف رقيقة أرق من غضاريف الحمام.. ودمها من مواد ممتازة.. شربات أو لبن حليب أو سائل مشع نورانى.. ومن يأكل من لحم هذه المخلوقات يصبح محصناً من المرض، منيعاً على الموت.. ويطول عمره حتى يصبح ألف عام.. وتتحقق له حياة سعيدة لا يشكو فيها علة.

لو أننا اكتشفنا هذا ماذا يكون حكمنا على مَنْ يقتل هذه المخلوقات ويأكلها من بنى الإنسان؟

هل نعتبر هذا العمل إنسانية؟

أعتقد أن صيد هذه المخلوقات وذبحها وبيعها وتصديرها

والاتجار بها وأكلها وتعليبها وتثليجها وتحويلها إلى عصير.. ومستخلصات.. وطبخها بالصلصة وشيها على السيخ وكل صنوف التدمير والعدوان التى يمكن أن نلحقها بها تكون منتهى الإنسانية.

بل إن ذبحها وتوزيعها فى عدالة ليفوز بها كل إنسان على ظهر الكرة الأرضية يكون واجباً أصيلاً محتماً.

وإعلان الحرب عليها يكون هو الشهامة مجسمة.

والموت فى سبيل صيدها وقتلها يكون هو الشهادة.

ولن يكون فى أى عمل من هذه الأعمال العدوانية القبيحة مجافاة لمعنى الإنسانية.

فالإنسانية جوهرها هى كل ما يتحقق به الصالح العام لبنى الإنسان والصالح العام لبنى الإنسان هنا واضح لا لبس فيه.

الصالح العام هو أن نلتهم هذه السلالة من المخلوقات أولا بأول.

ونزدردها ازدردا .. لنقوى.. ونخلد.. ونزداد بأساً.

إنها حكاية لن تختلف كثيراً عن أكل الدجاج.. والسمك والجمبرى.. وسوف يكون من واجب الدولة أن توفر لنا هذا الطعام الواقى كما تسعى الآن إلى توفير كوب اللبن لكل طفل فى الجمهورية.

بل إن هذه الحرب سوف تكون وسيلتنا إلى تحقيق سلام دائم على الأرض لأننا سنعالج بها الجوع والفقر والمرض والموت وننشر ألوية السعادة على الأرض بالفعل.

ماذا يعنى هذا !!

هذا يعنى أن الكلمات الكبيرة التى تتصف بالشمول والقداسة.. كالإنسانية.. والشرف.. والسلام.. سوف تتغير معانيها حينما نقتحم الأفلاك ونغزو الكون وتتحول إلى كلمات محدودة محلية لا تختلف كثيراً عن الأنانية.. والإثرة.. والبخل.. هذه الكلمات التى تقترن دائماً بالأعمال المرذولة.

فكل معنى من هذه المعانى الرفيعة سوف يقترن بأنواع من العدوان.

سوف يقتضى ولاؤنا لجنسنا الإنسانى أن نخضع أى جنس آخر نعثر عليه ونستغله لصالحنا.. ولن نعرف للرحمة معنى.. لأن الرحمة والسلام والتسامح مع مثل هذه الأجناس الأقوى معناها أن نصبح خدماً لها.. ونتحول فى حضرتها إلى كلاب وإلى أشياء منحطة كالقرود ، معناها أن نضع أنفسنا فى حظائر.. وزنازين.. وحدائق «إنسان» مثل حدائق الحيوان عندنا.. ليتفرج علينا الجميع.

وغريزة البقاء والمحافظة على النفس سوف تدفعنا لأن نقتل هذه الأجناس.. وسوف يكون هذا القتل منتهى الإنسانية بالنسبة لنا ومنتهى السلام بالنسبة لجنسنا المهدد بالاستعباد.

وهذا هو ما يحدث فى التاريخ لأى كلمة ولأى حقيقة.

كلما اتسع مدار التاريخ وكلما تقدمت عربة التطور.. تتغير معانى الكلمات وتنقلب إلى نقيضها.

الولاء للعائلة كان فضيلة ثم أصبح شيئاً سمجاً اسمه العصبية العائلية.. ثم أصبح جريمة حينما اصطدم بمصلحة الوطن الأكبر.. أصبح شيئاً كالأنانية.

ما كان يفعله فرغلى.. والبدراوى.. والملوم.. لصالح عائلاتهم أصبح فى إطار الصالح الوطنى العام.. عملاً غير مشروع.

تغيرت معانى الكلمات لأن التاريخ خطا خطوة إلى الأمام.. والتطور انتقل من العائلة إلى القبيلة إلى الأمة.. إلى القومية.. وهو فى طريقه إلى العالمية.. ثم هو سوف ينطلق عبر الفضاء إلى الكون الفسيح.. وسوف تكون هذه الخطوة هى آخر عهدنا بالمقدسات الكبرى التى نرددها فى رهبة.. مثل الإنسانية، سوف نخطو عبر هذه الكلمات.. وسوف نجد أنها غير أخلاقية.. وسوف نحاول أن نعلو عليها لنحقق وحدة اجتماعية أكثر شمولاً.. جبهة الأرض والقمر والمريخ والزهرة مثلا.. الاتحاد الأعلى للمجموعة الشمسية.. المجلس الملى الكونى.. هيئة الأفلاك والمجرة والتبانة المتحدة.. وسوف تكون الإنسانية فى هذا المفهوم الواسع كلمة رجعية.. وتعصباً أعمى مثل التعصب للعائلة والقبيلة.. شيئاً سمجاً غبياً، يؤدى إلى الحرب والقتال والعدوان.

وسوف توجد موضوعات للحب أرقى بكثير من حب المرأة.. سوف نضحى بصالح جيشنا الإنسانى إذا أردنا أن نحقق وحدة أوسع وأشمل بينه وبين سائر الأجناس فى الأفلاك والمجرات والكواكب الأخرى.

وسوف نسعى إلى التزاوج من الأجناس الفلكية الأخرى لنرتقى بجنسنا.. سوف يصبح زواج المرأة والرجل عنصرياً رجعياً غير مشروع ولن يعتبر مشروعاً إلا زواج بجنية فضائية حتى نضع البذور الأولى لخروج أجيال جديدة راقية.. وحتى نرتقى بجنسنا البشرى.. إن أول صاروخ اخترق الفضاء لم يحمل

معه الكلبة لايكا فقط.. وإنما حمل معه أقدس ما عندنا من معان.. وأشرف ما عندنا من كلمات.. وألقى بها فى الفضاء.

ومع كل صاروخ ينطلق ويدور تتغير معانى هذه الكلمات.. مع كل أرض جديدة نغزوها.. وكوكب جديد ننزل عليه سوف نحتاج إلى دساتير خلقية جديدة ووصايا عشر جديدة.. ومعانٍ جديدة نعيش عليها.

هل سيكون بإمكاننا أن نلاحق هذه النهضة المادية السريعة بنهضة روحية تلائمها..؟

هل سيكون بإمكاننا أن نغير مفاهيمنا وعقولنا بنفس الصورة التى نغير بها أدواتنا المادية؟

إن تطوير أدواتنا المادية أمر سهل.. أن نركب حنطوراً بدل الحصان.. أو عربة بدل الحنطور.. أو طائرة بدل العربة أمر سهل. أما أن نستعمل أدوات عقلية جديدة.. ونفكر بمنطق جديد.. ونعيش بمقدسات جديدة وعقائد روحية جديدة، فهو الأمر الشاق.

والعقبات التى تعترض رجل الفضاء ليست هى اختلاف الضغوط ودرجات الحرارة.. وانعدام الهواء.. وانعدام الوزن.

وإنما هو لحظة نزوله على الكواكب سوف يكتشف ما هو أهم من انعدام الوزن سوف يكتشف انعدام العقل.

سوف يكتشف أن عقله ومفاهيمه العقلية التى تعوَّد أن ينظر بها إلى الأشياء لا تصلح لحياته الجديدة.

سوف يكون كحيوان يمشى بلا رأس .. كحشرة قشرية تتحرك وتدب بأرجلها .. وتتصرف بغريزتها.. ولا تفهم.. جندب.. أو جعران.. له قرون استشعار.. وله فم.. وله معدة.. ولكن ليس له عقل.

وسوف يكون عليه أن يكتشف بسرعة عقيدة جديدة وعقلاً جديداً ينظر به إلى ما حوله.. وضميراً جديداً يعرف به الحرام والحلال.

لن تختلف الإنسانية عن الهمجية وعن وحشية آكلى لحوم البشر.. ولن يختلف الحب عن السفاح الذى يحدث بين الإخوة والأخوات.

إن أول خطوة خارج الأرض لن تكشف نسبية أينشتين الرياضية فقط ولكنها أيضاً سوف تكشف النسبية الأخلاقية.

ملاح الأفلاك سوف يضع يده على نسبية الزمن.. ونسبية الحركة ونسبية الفضيلة.

سوف تختل أمامه جميع الموازين.

سوف يكون مثله مثل آدم.. يبدأ الخلق من جديد!



أين تقف.. ومع مَنْ؟

لاشك فى أن الانتخاب والبيعة والشورى والاستماع إلى رأى الخصم من أهم الصفات المعروفة فى صميم الإسلام، والتعددية فى الرأى أساس فى الإسلام، بينما الانفراد بالرأى والديكتاتورية والقهر أمور مرفوضة فى الإسلام جملة وتفصيلاً.

ويجب أن يفهم كل مسلم أين هو؟ ومع مَنْ؟ وضد مَنْ؟وسوف يخسر المسلم كثيراً إذا وقف ضد الديمقراطية، بل سوف يخسر دينه، وسوف يخسر نفسه.

والحقيقة أن الديمقراطية ديانتنا، وقد سبقنا غيرنا إليها منذ أيام نوح (عليه السلام) ، الذى ظل يدعو قومه بالحسنى على مدى تسعمائة سنة من عمره المديد، لا قوة له ولا سلاح إلا الرأى والحجة، يدعوهم بالكلمة فى برلمان مفتوح يقول فيه ويسمع، بينما هم يسخرون منه ويهددونه بالرجم.

فى تلك الأيام كان هؤلاء الهمج هم أجداد أجداد مستعمرى

اليوم.. وكـان نوح النبـى (عليـه السـلام) هو رسـول الإسـلام والمتحدث بلسانه، وحينما خرج النبى محمد (ﷺ) فى آخر سلسلة الأنبياء.. مازال الله يقول له الشىء نفسه:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾ [الكهف]

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)﴾ [فاطر]

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)﴾ [الغاشية]

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ (٤٥)﴾ [ق]

وتلك هى الأصول الحقيقية للديمقراطية، فهى تراث إسلامى.

فإذا قالوا لكم : الديمقراطية.

قولوا : الديمـقراطيـة لنا ، ونحن حملة لوائهـا ونحن أولى بها منكم.. ولكنهم سوف يلتفون ليخرجـوا بمكيدة أخرى فيقولوا : إن الإسلام ليس فيه نظرية للحكم.

وسوف نقول : وتلك فضيلة الإسـلام وميزته، فلو نص القرآن على نظرية للحكم لسـجنتنا هذه النظرية كما سـجنت الشيوعـيين ماركـسيتهم فـماتوا بموتها.. والتـاريخ بطوله وعرضه وتغـيراته المستمـرة وحاجته المتجددة المتطـورة لا يُمكن حَشْرُه فى نظرية ، ولو سجنته فى قالب، لا يلبث ـ كالثـعبان ـ أن يشق الثوب الجامد وينسلخ منه، والأفضل أن يكون هناك إطار عام، وتوصيات عامة، ومـبادىء عـامة للحكم الأمـثل.. مثل: العـدل، والشورى، وحـرية التجارة، وحرية الإنتاج، واحتـرام الملكية الفردية، وقوانين السوق، وكرامة المواطن.. وأن يأتى الحكام بالانتخاب ويخضعوا لدستور.

أما تفـاصيل هذا الدسـتور فـهو مـا سوف يخـضع لمتغيرات التاريخ.. وهو ما يجب أن يترك لوقته.

والأيديولوجـيـات التى حـاولت المصادرة علـى تفكيـر الناس وفرضت عليهم تفكيراً مسبقاً ونهجاً مسبقاً قال به هذا أو ذاك من العباقرة ـ ثبت فشلها.

وهذا ما فـعله القرآن.. فقد جـاء بإطار عام، وتوصيات عـامة، ومبـادىء عامـة للحكم الأمثل.. وترك باقى التـفاصـيل لاجتـهاد الناس عـبر العـصور.. ليـأتى كل زمـان بالشكل السيـاسى الذى يلائمه.

وفى خضم الاجـتهاد الإسلامى سـوف تجد محصولاً عظـيماً تأخذ منه وتدع.. من أيام الشيـخ محمـد عبده والأفغـانى وحسن البنا والمودودى، إلى زمـان : مـالك بنى نبى والمـهدى بن عـبود والزندانى، إلى إبراهيم بن عـلى الوزير والشيخ مـحمد الغـزالى والشعـراوى ويس رشدى والدكتـورين محمـد عمارة وكـمال أبو المجد.. مـوسوعـة من الفكر سـوف تمد مَنْ يقرأها بمدد من الفـهم لا ينفد.

والسـؤال الذى يخـرج به البـعض من وقت لآخـر: ألا يحـرم الإسلام على المرأة أن تعمل؟ وهم لا يكفون عن ترديده.

وأقول لهم : هاتوا آية واحدة من القرآن تثبت كلامكم.

والأمر القرآنى للنساء بالقرار فى البيوت كان لنساء النبى.

وكان مشفـوعـاً فى مكان آخر بالآية :﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ (٣٢)﴾ [الأحزاب]

وتلك إذن خـصـوصـيـة لزوجـات الـرسـول (عليـه الصـلاة والسلام).

وهل رأيتم زوجة كلينتون تعـمل، أو زوجة بوش لها بوتيك؟!..

إن كل واحدة منهما عملها الوحيد زوجها.

وهن زوجات رؤساء علمانيين.. فما بال زوجة سيد البشر، وخاتم الأنبياء صاحب الرسالة الكبرى.. كيف يجوز أن يكون لها عمل آخر غير زوجها؟

الخصوصية هنا واضحة، وهى لا تنسحب إلا على مَنْ كن مثلهن من نساء الأمة، ومَنْ كن فى مثل ظروفهن، والكلام الآخر السخيف الذى يرفض الدولة الإسلامية لأنها دولة دينية.. لا يفهم سر قوة حكمة أبى بكر وعمر بن الخطاب ـ وهما السادة والمثل ـ حينما يقول الواحد منهما صبيحة بيعته:

« إن أصبت فأعينونى، وإن أخطأت فقومونى».

لا عصمة لحاكم إذن.. ولا حكم إلهيا فى الإسلام.. وإنما هو حكم مدنى ديمقراطى، يخطىء صاحبه ويراجع.

وقولهم : إن الإسلام يقف سداً منيعاً أمام اجتهاد العقل بمقولته الشهيرة: لا اجتهاد مع النص.. وما أكثر النصوص.. بل القرآن كله نصوص.

أقول لهم: لا يوجد فى القرآن نص أكثر تحديداً وصرامة من قطع يد السارق، وقد جاء هذا النص فى القرآن مطلقاً لا استثناء فيه.

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة]

ومع ذلك فقد اجتهد النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى فهم النص، فلم يطبقه فى الحروب واجتهد فيه عمر بن الخطاب فلم يطبقه فى عام المجاعة، وهى استثناءات لم ترد فى القرآن، فضربا

بذلك المثل على جواز الاجتهاد، وجواز إعمال العقل حتى فى نص من نصوص الشريعة.. فما بال النصوص الأخرى التى لا تمس حكماً أو عبادة؟!

أما عن حكاية الفن.. والتناقض الذى خلقوه بين الفن والدين ليجعلوا من الإسلام عدواً للجمال.. فإننى أقول: حتى الشعر والشعراء الذين قال عنهم القرآن:

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ [الشعراء] .. عاد فاستثنى قائلا:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] .. وينطبق هذا على الفنون كلها، فهى جميعاً تخضع للقاعدة نفسها.. حسنها حسن، وقبيحها قبيح.. كل ما يدعو منها للخير هو فن حسن، وكل ما يدعو للفساد والإفساد هو فن قبيح، وهى قاعدة يطبقونها حتى فى الغرب.. فهم يقولون عن كثير من الأعمال الفنية إنها رديئة وهابطة.. والفن الردىء عندهم متهم، كما هو فى كل مكان.. والمعركة مستمرة.

ولكننا فى حاجة إلى كتيبة تجدد الدين وتقاتل خصومه بأسلحة العصر، وليس بفتاوى ألف سنة مضت.. فالإسلام السياسى هو إسلام ينازع الآخرين سلطاتهم.. وهو بطبيعته يريد أرضاً، والفكر الإسلامى لا يريد أن يحكم، بل يريد أن يحرر.. يريد أن يحرر أرضه المغتصبة.. ويريد أن يحرر عقولاً قام الآخرون بغسلها وتغريبها.. ويريد أن يسترد أسرته وبيته.. بالكلمة الطيبة وبالحجة والبينة، وليس بتفجير الطائرات وخطف الرهائن.

بالسياسة، لا بالحروب..

بالحوار الحضارى، لا بالاشتباك العسكرى.. ولكنهم لن يعطوا الفرصة لهذا الحوار الحضارى، وهم ينتظرون سقطة من زعامة متخلفة، ويتعللون بصيحة عنف يصرخ بها منبر ضال، أو عربة ملغومة يفجرها عميل، ثم يتطوع عميل آخر ليقول إنها من عمل الجهاد الإسلامى، أو «شباب محمد».. أو «حزب الله» .. ليثيروا بها ثائرة الأبيض والأحمر والأصفر على الإسلام وأهله.

ولكن أهل العلم يعلمون أن العدوان مبيت منذ عشرات السنين منذ سقوط الخلافة العثمانية، ومنذ وعد بلفور، وتهجير مطاريد اليهود من أقطار العالم وجمعهم فى إسرائيل، وإقامة الترسانة النووية والكيميائية والميكروبية فى داخل القلعة الإسرائيلية.. وتحطيم أى سلاح عربى منافس.

هم يخططون من قديم لهذا اليوم والمعركة مستمرة.

وسوف تستمر بطول ما بقى من زمان إلى يوم الدين.. ولن تكون معركة سهلة.

وطوبى لهم .. مَنْ كانوا من أبطالها!



السر..!

الطبيعة يكتنفها السر.

إنها ليست كما تبدو على السطح بالنظر الساذج الموضوعى.. سماء الليل المرصعة بالنجوم ليست كما تبدو مجرد ملاءة سوداء عليها نقط فضية.

إن فيها عمقاً واستسراراً.

والبحر ليس مجرد حوض ملىء بالماء المالح.

إن فيه هو الآخر .. عمقاً .. ورهبة.

إن رؤيته وهو يجيش ويتلاطم .. تهز النفس.

الطبيعة أعمق من مجرد كونها خريطة.. ومسطحات ممدودة.. وشكلاً جغرافياً.

إن فيها عمقاً كالعمق الذى نراه فى عين وحش كاسر مذبوح يتألم.. إن الوصف الموضوعى لماء البحر بأنه ماء مذاب فيه سلفات صوديوم وسلفات ماغنيسيوم وكلوربوتاسيوم.. إلخ.. إلخ .. وصف مضحك.

هناك نوع عميق جداً من التخاطب.. بين الإنسان والإنسان.. وبين الإنسان والطبيعة.. يتم بدون العقل.. يتم عبر العقل.. يتم بدون نظر موضوعى.. بالإلهام.. بالرؤية الوجدانية.. والاتصال المباشر بدون وساطة الكلام.

حاسة سادسة أو سابعة تكشف للإنسان روح الأشياء فى لحظات.. وفى ومضات خاطفة.. فيحس كأنما هذه الطبيعة الموضوعية الظاهرة للحواس ليست هى كل الحقيقة.

وإنما هناك شىء وراءها.. وأنها مجرد جسد.. مثل الجسد الممدد على مائدة العمليات.. جسد وراءه شىء.

العالم ليس ما هو عليه.

النظرة الموضوعية ليست كافية.

العلم لا يفى بأغراضه فى البحث عن الحقيقة، إنه مجرد خطوة.

الإنسان ليس مجرد بيت خربان يكفى لإصلاحه أن نقوم بعملية مكياج خارجية، فندهن الحجرات بالزيت ونغطى الأرض بالباركيه.

الإنسان أكبر بكثير مما يبدو من خارجه.

وترميمه من الخارج بإطعامه.. وتأمين الضرورات المادية لحياته.. وصيانته بالكساء والدواء.. خطوة مهمة أولى فى طريق طويل ولكننا لابد أن نتجاوز هذه الخطوة.

ونتجاوز أفعالنا.. ونصعد على عقولنا.. وننظر عبرها.. عبر ما يبدو من حدود موضوعية أمامنا.

إن الحقيقة وراء..

وراء كل هذا ..

إن كل ما هو واضح ومحدد ومفهوم فى هذه الدنيا لا يدل عليها.. وإنما يدل على غرورنا فقط.

إن أكثر الأشياء دلالة على حقيقة هذه الدنيا هو جانبها المحجوب الخفى الحاضر فى وجداننا الغائب عن حواسنا.

إن كل ما يبدو للحواس له دلالة رمزية فقط .. إنه مجرد شفرة للحقيقة. إن الكثرة التى نراها حولنا كثرة رمزية أكثر منها كثرة حقيقية.

وحينما يأخذ العقل بهذه الجزئيات التى يراها.. ويقف عندها.. يضل.. يتوه.. فهناك ألف مليون مليون شىء مختلف فى الدنيا ومع ذلك، فالاختلاف ظاهرى فقط.

وكل هذه الأشياء المختلفة مترابطة فى سياق عضوى كأنها أعضاء جسد واحد.

عشرات الآلاف من أنواع النبات والحيوان من حشرات لزواحف لطيور لزهور.. هى فى الواقع عشرات الآلاف من التباديل والتوافيق فى مادة واحدة هى مادة البروتين فى سباق زمنى طويل من التطور والنشوء والارتقاء.

الحركة والكهرباء والحرارة والضوء والصوت والمغناطيسية جميعها شفرة لشىء واحد.. ودلالات رمزية لحقيقة واحدة.. ومترادفات لغوية لمعنى واحد.. هو الطاقة.

ما يبدو لنا تكاثراً هو فى الحقيقة واحد.

شىء واحد يكشف لنا عن وجوده بملايين الرموز.. والرموز.. التاريخ قصة رمزية مسلسلة.

إن كل فصل تاريخى بذاته عمل فاشل لا يوجد ما يبرر ما بذل فيه من دم وتضحيات.

التاريخ عملية ثورية تفشل دائماً فى بلوغ أهدافها.. كل عصر يحمل بذور فنائه فيه.. ومع ذلك، فأحداث التاريخ الفاشلة لها دلالتها.. ودلالتها تقوم عبرها.. وعبر نهايتها.

معنى التاريخ فى المستقبل.. وليس فى الحاضر.. ولا الماضى.. فى ملكوت المستقبل الذى يحلم به الإنسان.. فى الحرية التى يحاول تحقيقها.

فى التاريخ القديم حطم إبراهيم أصنام الجاهلية.

وفى التاريخ الحديث حطّمت الشيوعية صنم رأس المال.. وأقامت صنماً أعتى اسمه.. الدولة.. الحكومة.. وهى كأى حقبة تاريخية تحمل بذور فنائها فيها.. تحمل بذرة الفوضوية التى سوف تحطم صنم الدولة وصنم الحكومة.

والتاريخ ماض فى تسلسله.

والماضى لا يموت.. إنه يبعث فى الحاضر بألف صورة وصورة.

رموز..

الواقع رموز..

وبدون هذا الفهم الرمزى للواقع يبدو الواقع كثيفاً غليظاً.

إن استشفاف الرموز والمعانى من الواقع الغليظ الكثيف الجاف يخفف من جفافه وغلظته ويضيئه.

وبدون هذه الرؤية الوجدانية للواقع يصبح الواقع كابوساً.

الرؤية الموضوعية تجعل من الواقع كابوساً يجثم على

الحواس..وتجعل من مفردات الواقع حقائق نهائية.

والإدراك لا يتعامل مع الواقع على هذا الأساس.

الإدراك يخطو عبر الواقع ويتعالى عليه ويبحث عن معناه.. وراءه.. خلفه.

إنه يتعامل مع رموز الواقع باعتبارها حقائق ناقصة.. يبحث لها عن معنى.. هل جربت البنج الموضعى؟

هل جلست على كرسى طبيب الأسنان وفتحت فمك وأسلمته نفسك ليحقنك بالبنج.. ثم بدأت تتفرج عليه وهو يقتلع ضرسك من جذوره ويخرجه بيده مغموساً بالدم.. وأنت تتفرج عليه فى فضول وكأنه ضرس رجل آخر.. وقد مات شعورك تماماً.

إن منظر الجراح وهو يحاصر الجلد بالبنج ثم يقصه فى هدوء كأنه يقص قطعة من الصوف الإنجليزى.. منظر غريب.. والأغرب منه منظر المريض وهو يتابع هذه العملية فى دهشة.. وينظر إلى جلده والمقص يقطع فيه بلا ألم.. وكأنه جلد رجل آخر لا يعرفه.. وينظر إلى جسمه وكأنه ليس جسمه.. وينظر إلى نفسه.. وكأنه شىء آخر غير ما هو عليه.

إنه يسأل نفسه:

مَنْ أنا..؟

أنا لا يمكن أن أكون ذلك الشىء الذى يقطعه الطبيب، ويقصه ويرقعه.

أنا لست ذلك الجسم الذى يبتره الجراح.. أنا لست الشعور الذى مات.

أنا لست موضوع تلك العملية.

أنا مجرد متفرج على ذلك الشىء الموضوع على المائدة.

وهو إلهام صحيح تماماً.

إن الإنسان ليس موضوعاً.. ولا يمكن إحالته إلى موضوع يُنظر إليه من خارج كما يُنظر إلى خريطة جغرافية.

الإنسان هو الآخر له أعماق «جوانية» لا تحيط بها النظرة الموضوعية.

الإنسان داخله نهر من الأفكار والمشاعر، متجدد، متدفق بغير حدود، نهر من الأسرار.. غير مكشوف لأحد سواه هو.. ولا شىء يبدو من هذا النهر من خارجه.. ولا يمكن أن تحيط به نظرة موضوعية.

وأنت حينما تتخذ من الإنسان موضوعاً.. يفقد فى يدك الحياة.. ويفقد الوحدة.. ويتفكك ويتحول إلى جسد.. إلى مادة تشريح.. إلى شىء.. أى شىء إلا الإنسان الذى تقصده.

واقع الإنسان الملموس المرئى الظاهر.. ليس هو الإنسان.. إنه إفرازه.

والعلم يتحسس الإنسان من خارجه فقط.. يفحص بوله ودمه ونخاعه وعرقه ولعابه.. يفحص إفرازاته.

وهو لا يستطيع أن يخطو عبر هذا المظهر.. إلا بالاستنتاج.

ولكن الفن يستطيع أن يدخل الإنسان عبر العقل والمنطق ليخاطبه من داخله.. ليخاطب مكمن الأسرار فيه مباشرة وكذلك الدين.

والحب..

لحظة الحب والوجد.. مثل لحظة الكشف والإلهام.. تتكاشف

فيها القلوب بلا وساطة.

السر يخاطب السر.

وأنا أؤمن بالعلم.

ولكنى لا أكتفى به.

وأؤمن بحواسى الست ولكنى لا أكتفى بها.

وأعتقد أن الطبيعة يكتنفها السر.

وأن الحقيقة مغلقة أمام كل محاولة لكشفها بالرادار والترمومتر والمجهر وحده.

وأن الطبيعة فى ضوء العلم وحده كابوس حقيقى.

والحياة بالمنطق وحده سخافة.

والواقع بالنظرة الموضوعية مسطح تماماً.

الطبيعة بدون شعر.. وبدون موسيقى غير طبيعية.

هل هى رومانتيكية الرجل الشرقى؟

نعم أعتقد أنى رجل شرقى تماماً.

ولا أعتذر من أجل شرقيتى.



دراويش الفكر!

تصلنى أحياناً من القراء تعليقات جادة وتساؤلات حول ما أكتبه.. والبعض يلتقط عبارات من كتب قديمة صدرت لى منذ ثلاثين عاماً محاولاً أن يشهد الناس.. كيف كنت منذ ٣٥ عاماً كثير الشك، ثم أصبحت مؤمناً ..! يا له من تناقض وجريمة لا تغتفر لمفكر..! ويبدو أن المفكر الأمثل عندهم هو قطعة رخام لا تنتقل من مكانها، أو مستنقع آسن لا يتجدد ماؤه، أو حياة خاملة راكدة آلية لا تتطور!

ويتصور الواحد منهم الفضيلة والذمة فى أن يكتشف الكاتب خطأه فلا يصححه ولا يرجع عنه.

ويتصور أن الكمال فى العجرفة الفكرية، والجمود والتعصب، والثبات ولو على الخطأ (مادام هذا الخطأ فى صالحهم!).

ولو كنت مؤمناً تحولت إلى الإلحاد لأخذونى بالأحضان.. ولقالوا: هذا هو المفكر الشريف بحق.. هذا هو رائد النقد الذاتى!

ولكن لما كان نقدنا لذواتنا على غير هواهم أصابهم عمى

الألون، فرأوا الأبيض أسود، ورأوا الفضيلة رذيلة، والذمة خيانة.

ولقد حارب خالد بن الوليد ضد الإسلام بشراسة، وأنزل الهزيمة بالمسلمين فى «أحد».. ثم آمن وحمل لواء الدعوة، وأصبح سيف الله المسلول، فلم يقل أحد إنه رجل متناقض بلا مبدأ .

وحارب عمر بن الخطاب الدعوة الإسلامية فى بدايتها بضراوة، ثم اعتنق نفس الدين الذى سبه وسفهه وحاربه. فلم يشك أحد فى إيمانه، ولا فى صدقه ولا فى ذمته.

والإنسان فى شبابه مندفع بطبيعته، يؤمن بالساذج البسيط، الواضح الملموس أمامه، ولهذا فهو يستريح إلى المادية والفكر المادى، لأنها لا تطالبه بشىء، غير الموجود أمامه.. فهى تبدأ من القريب المحسوس ولا تتجاوزه، ولا تجهد الذهن استخلاصاً للحكمة من ورائه.. بل إنها لا تعتقد فى وجود حكمة.. لا شىء سوى المادة، التى تتطور تلقائياً بقوانينها الجدلية الخاصة.

والمفكر المادى لا يحاول حتى أن يسأل نفسه: مَنْ الذى وضع فى المادة قوانينها الجدلية هذه؟!

وهو نفسه غارق فى الغيبيات إلى أذنيه!

بل إن العلم نفسه ـ الذى يتشدق به، ويحتكم إليه ـ غارق فى الغيبيات هو الآخر.

العلم يتكلم عن الإلكترون على أنه حقيقة.. ولم ير أحد الإلكترون.. ولا نعلم عن الإلكترون سوى آثاره.. أما الإلكترون ذاته فهو غيب.

وبالمثل : الموجة اللاسلكية .. لا نعلم عنها إلا آثارها فى عمود الإرسال وجهاز الاستقبال.. لم ير أحد تلك الموجة الأثيرية. ولم يعرف أحد كنهها.

بل الكهرباء ذاتها هى الأخرى طاقة لاشك فيها، ومع ذلك فهى مجهولة الهوية تماماً.. ولا نعرف عنها إلا مجموعة آثارها الظاهرة من حرارة إلى ضوء إلى حركة إلى مغناطيسية.

فإذا قلنا لهم : إن الله بالمثل عرفناه بآثاره، وأن «هويته» غيب.. لم يعجبهم كلامنا!

بل إن المفكر المادى يقول فى جرأة عجيبة : «فى البدء كانت المادة، ثم تطورت المادة إلى كافة صور الحياة والفكر».. وكأنه كان موجوداً لحظة بداية الخلق، متربعاً فى كرسى بلكون يتفرج على ميلاد الدنيا!!

هو يتكلم عن غيب، ويبدأ من غيب .. ولا يملك إلا افتراضات واحتمالات ونظريات.. ثم يتهمنا نحن بالغيبية!

وهؤلاء هم «دراويش» المادية، لا وسيلة لإقناعهم؛ لأنهم لا يريدون اقتناعاً.. وإنما هم اختاروا الجمود العقائدى وتشنجوا عليه، واستراحوا إلى ما فيه من تبسيط مخل؛ وتلخيص ساذج للحقائق الكونية.

وليس أبعث للراحة من اعتقاد الإنسان أنه لا مسئولية هناك، ولا بعث، ولا حساب.. وأن له أن يفعل ما يشاء .. لا رقيب عليه ولا حسيب سوى البوليس والمخابرات !

ومثل هذه العقيدة المادية أقرب إلى قلب بعض الشباب المندفع الذى يريد أن ينطلق على هواه.. بلا ضوابط ، وبلا مساءلة.

وليس صحيحاً أن الفكر الإلحادى المادى هو الذى أعطانا حياتنا المتقدمة، بما فيها من قطارات وعربات وطائرات وصواريخ وراديو وتليفزيون.. فهذه الأشياء هى عطاء العلم.. والعلم تراث متاح

للكل.. ولا مذهب له.. يطلبه رجل الدين، كما يطلبه رجل الفكر من يمين ويسار.

كان العلم يرفع راياته فى مصر الفرعونية الوثنية ، كما كان يرفع راياته فى صدر الإسلام.

العلم تراث بشرى لا يستطيع أحد أن يدعى ملكيته، وليس صحيحاً أن الدين يناقض العلم.

وديننا يأمر بالعلم فى أول آية من القرآن : « اقرأ».

أمر صريح بالعلم والتعليم فى أول حرف نزلت به تعاليمنا السماوية، والعلماء عندنا هم ورثة الأنبياء، وهم فى القرآن فى درجة الملائكة: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ..(١٨)﴾ [آل عمران].. والذى يتصور تناقضاً بين الدين والعلم لا يعرف ما الدين ولا ما العلم ، وإنما هو يريد أن يختلق لنفسه مبرراً للرفض.. وما أسهل الرفض!

الاستعمار اللغوى

اللافتات وأسماء المحال فى الشارع المصرى تكاد تختفى منها اللغة العربية، وحيثما ذهبت بعينيك لا ترى إلا أسماء فرنسية أو إنجليزية أو إيطالية.. على اليمين وعلى اليسار غزو ثقافى مكتسح.. أوتيل كونتيننتال.. رستوران أورينتال.. بوتيك شارك.. بيتزا إيطاليانو.. عصير مادونا.. حلوانى داليشس.. كافيه كابوتشينو.. آيس كريم تاون.. كويك فود.. كوافير رومانتيك.. عجلاتى كويك رن.. ميكانيكى ستاندرد.. سراير هاى لايف.. ترزى شيك.. أزياء مودرنا.. إلخ.. إلخ.. ولا تجد هذا أبداً فى المساجد.. وإنما تجد الأسماء العربية والعربية الفصحى.. مسجد الرحمة.. ومسجد الرحمن.. ومسجد التقوى.. ومسجد الرضوان..

ومسجد قباء.. ومسجد محمود.. ومسجد التوبة.. ومسجد المغفرة.

الإسلام هو الذى حفظ هوية المنطقة.. وهو الذى ما زال يضبط النطق العربى.. وفى هذه الفوضى من التفرنج والاغتراب كان المسجد هو مؤشر الأصالة والحافظ للطابع والميراث العربى.

ومازلت أعتقد أن الدين هو الذى حفظ المنطقة من الضياع والانسلاخ والتلون باللون الذى أراده المستعمرون.

وكان من نتيجة هذا العامل الدينى الضابط للإيقاع.. أن حدث العكس ورأينا المستعمر هو الذى يتلون باللون العربى ويتشرب الذوق المصرى ويتعلم اللهجة المصرية والنكتة المصرية والأكلة المصرية.

ونذكر أن الإسكندر حينما غزا مصر لم يستطع أن ينقل إليها آلهة الأولمب اليونانية وإنما على العكس ألبسه كهنة سيوة ديانة آمون وخرج من معبد سيوة على اعتقاد أنه ابن الإله المصرى الذى حبلت به أمه المقدونية. وكلها أدلة على سلطان الدين وقوته فى مصر.. وأن مصر تصبغ الذى يغزوها برغم ما يبدو فى ظاهر الشارع المصرى أنها هى التى تصطبغ بلونه.

والحقيقة أن الغزو الثقافى برغم ضراوته لم يتجاوز القشرة الرقيقة الخارجية التى ما تلبث أن تتمزق أمام أى عارض وتظهر من تحتها الماهية والهوية الدينية الأصيلة لهذا البلد العريق.

والحضور الإسلامى يفرض نفسه هذه الأيام.

ونحن نرى الآن الهوية الإسلامية تملأ الساحة بكل درجات الطيف من الحضور الإسلامى الواعى والمستنير إلى التشدد والتطرف إلى الهوس إلى الإغراق فى الشكليات والتصلب على الشعارات إلى الجنون والفوبيا الدينية.

والهوس والتدين الشكلى والنقاب والقفازات والعباءات السود هى فى نظرى غزو ثقافى آخر مضاد وهو أجنبى عنا وعن إسلامنا بقدر غربة وأجنبية العرى الفرنسى والثقافات الأمريكية المنحلة.

وهو سلاح مسدد لغزو الإسلام من داخله مثلما أن الثقافات الأمريكية المنحلة سلاح مسدد لهدم الإسلام من خارجه.. والفرق أنه غزو للبيت من بابه.. غزو يستعمل نفس الأبجدية الإسلامية ويستخدم نفس الرموز الدينية ويدخل علينا من الشرق وليس من الغرب.. ويقول بسم الله الرحمن الرحيم .. ولا إله إلا الله.. كما نقول.

وجماعة البلاليين فى أمريكا (نسبة إلى بلال) الذين يركبون البغلة اقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام ويأكلون بأصابعهم ويقضون الحاجة فى الخلاء.. هم نموذج آخر من هذا الهراء الذى يسيىء إلى الإسلام، ويدعو إلى الفهم الخاطىء والمتخلف لمعنى السنة المحمدية.. فالنبى عليه الصلاة والسلام لم يتميز عن أقرانه بركوب البغال، فالكل كانوا يركبون الدواب وكانوا يقضون الحاجة فى الخلاء وكانوا يأكلون بأصابعهم.. وإنما تميز وانفرد بالصدق والأمانة والشجاعة والشهامة والتقوى ومكارم الأخلاق.. وفى هذا يكون الاقتداء وليس فى البغال وفى الأكل بالأصابع وفى قضاء الحاجة فى الخلاء.. وليس فى ذلك السخف أى سنة وإنما هو غزو ثقافى مضاد يستخف بالإسلام ويهزأ من السنة ويضحك على العقول.

وكل هذه التيارات المتناقضة تموج بها دوامة الشارع هذه الأيام.

ولا يدرى بعض دعاة الإسلام أنهم دعاة ضد الإسلام من حيث لا يشعرون.

ويختلط الحابل بالنابل وتختلط الأوراق على ضعفاء النفوس.

ولا ننسى الغزو الآخر الجهير القادم من الشمال فى سينما الجنس والعنف ومسرح الهزل والفحش وغناء الديسكو وموسيقى الزار والهلوسات التشكيلية التى تدلق الألوان على اللوحات وتسميها جماليات سيريالية وتضع كومة من الزلط وتسميها نحتاً وتجمع زبالة من الحديد الصدىء وتسميها تمثالاً.

ثم الغزو الثقافى الآخر فى الشعر .. والمذاهب الجديدة فى النظم بلا نظم.. والإغراب لمجرد الإغراب.. والأبيات التى بلا وزن وبلا نحو وبلا إعراب.. وأنواع اللغة التى فقدت تواصل اللغة ووظائف اللغة.. وقصيدة ج وأمثالها.

ثم الغزو الآخر الفاجر فى رواية سلمان رشدى «آيات شيطانية» الذى تصور فيها أنه أتى بإبداع جديد فى عالم الرواية وما أتى إلا بأحقاده الشيطانية وما عبر إلا عن مرضه النفسى.

ومصر بلد مفتوح النوافذ على ثلاث قارات أوروبا وآسيا وإفريقيا.. وهى لا تستطيع أن تغلق أبوابها لأنها جسر عبور وممر تجارى وثقافى وحضارى وملتقى زوابع.

وهى بلد غنية بسواحلها وآثارها وبترولها ومعادنها وناسها وتاريخها.

وهى مطمع الكل.

وفيما مضى كان يغزوها العسكر وتفتحها الجيوش أما الآن، فالغزو اقتصادى وثقافى وهو يدخل من باب الصحيفة والكتاب وشاشة السينما وشاشة التليفزيون.. ويحكم من داخل صندوق

النقد الدولى .. ويسيطر من خانة القروض والفوائد.. ويتسلل من ثغرة التكدس السكانى ومن الحاجة إلى القمح والرغيف.

والجيوش الآن جيوش خفية اسمها الموساد .. والـ C.I.A. والماسونية.. والمخدرات.. والإرهاب.. والقنابل.. والمتفجرات.

والتآمر الآن يستعمل نوعاً جديداً من العمالة الراقية.. هم وجهاء الناس وكبراؤهم وسادتهم وأغنياؤهم.. كما يستعمل نوعاً آخر من العمالة الدون يدربها على القتل وتفجير القنابل وتلغيم العربات.

وفى هذه الأجواء العنكبوتية يعيش المواطن المصرى.

وفى هذا العصر المرعب يعيش العالم المقبل على فواتح القرن الواحد والعشرين.

والمتابع للأخبار والقارىء للصحف يصاب بضغط الدم والذبحة والجلطة والاكتئاب لكثرة ما يقرأه ويشاهده من الانفجارات والثورات والانقلابات وعجائب الجرائم وأحداث القسوة والعنف التى تشيب لها الرءوس، وكأنما اختفى الضمير فجأة وتحول البشر إلى قطيع من الحيوانات.

وتتكلم دول كبرى عن حقوق الإنسان وهى ذاتها تدوس على عنق هذا الإنسان بالحذاء.. ووسط هذا الجنون لا شىء يمسك على الإنسان عقله، ويعيد بعض الهدوء إلى قلبه المرتاع الملتاع سوى بقية من دين وبصيص من إيمان عميق وإسلام صادق منقاد لقضاء الله وقدره، واثق بحكمته المستترة الخافية من وراء كل شىء.

حدوتة !

كنت أجلس وحدى.. الساعة تدق الثالثة بعد منتصف الليل.. والمائدة أمامى عليها بقايا أكواب.. وأعقاب سجائر.. وفتات خبز.. وكراسى الطقم مبعثرة فى فوضى.. والجو فيه رائحة الناس الذين كانوا حولى منذ لحظة.. وأصوات قهقهة ما زالت فى أذنى.. وآخر ابتسامات.. وآخر كلمات ما زالت تسحب فى ذاكرتى ذيلاً طويلاً.

انتهت السهرة ..

وقع الأقدام خارجة.. مازالت على الدرج.. والباب وهو يغلق.. والأسانسير وهو ينزل.. حاملاً معه آخر هاللو.. أحلام سعيدة.. وتصبح على خير.

وخطر لى أن أدير جهاز التسجيل.. واستمع إلى السهرة من جديد.. وكنت أشعر بلذة وأنا أتتبع الأصوات المختلطة وأتبين كل واحد منها على حدة.. هذا فلان.. وهذا فلان.. وهذا أنا.

وأصغى إلى صوتى وأنا أقهقه.. وأقول.. كمان.. والنبى كمان..

حلو قوى يا خويا.. ويبدو صوتى فى أذنى خشنا وكأنه صوت رجل آخر.. وأتطلع بأذنى إلى نبراتى كأنى أتطلع إلى صورة غريبة عنى لا أعرفها ولا يعجبنى صوتى.

وأنظر إلى الجهاز الذى استطاع أن يفصل قطعة قطعة من نفسى ويسجلها، ماذا يحدث لو استطاع العلم أن يخرج عقلى من مخى ويسجله على شريط ويخرج عواطفى ويصورها.. ويطبع من ضميرى كارت بوستال ٦ × ٩ .

ها هنا فى هذا الجهاز أصواتنا كلها معبأة فى شريط أقل من ملليمتر.. منقوشة على ذرات.. على هباء.

ها هو اختراع جعل المادة طيعة لينة قابلة للتشكل قادرة على نقل أدق الصور والتعبيرات والسمات الإنسانية.

جهاز يجمع الإلكترونات وينثرها ويرسم منها حروفاً ونغمات وتونات طبق الأصل كما نطق بها صاحبها.. إلى هذا الحد وصلنا فى ميدان الاختراع والمعرفة.. والابتكار..!

وتذكرت آخر كتاب كنت أقرأه عن العصر الحجرى منذ ستة آلاف سنة.. وكيف كنا نعيش فى ذلك الوقت فى غابات البردى الكثيفة تمرح حولنا جواميس البحر والفيلة والدببة والضباع والغزلان والخيول والتماسيح ووحيد القرن والثور والقرد والحمار.. نأوى فى البرد إلى الكهوف.. وفى الحر إلى خيام نصنعها من جلد الماعز.. ونقضى نهارنا ننحت أسلحتنا من الحجر الصوان.. خناجر وسكاكين ورءوس للحراب وبلط وأزاميل وحراب وعصى من الخشب ونصال ذوات أسنان ودبابيس من العظم والعاج والقرن..

فى ذلك الوقت كانت أعظم اختراعاتنا.. هى الفأس والمحراث.. والمقلاع.. والسهم والقوس.

وأعظم مبتكراتنا التى قلبنا بها وجه التاريخ.. فلاحة الأرض.. وتربية الدواجن.

وأغنى أغنيائنا رجل يملك كوخاً من الطين والبوص وقطيعاً من الخنازير وطقماً من الأوانى الفخارية.

كان الفخار فى تلك الأيام شيئاً كالذهب.. وكوخ الطين شيئاً مثل قصر على شاطىء الريفيرا.

واليوم..

وما أبعد اليوم عن الأمس..

اليوم.. الرجل العادى يسكن عمارة فيها أسانسير وماء ونور.. ويدخل سينما فيها تكييف.. ويحمل فى جيبه راديو ترانزستور.. ويأكل أقراص فيتامينات.. ويقرأ الصحف.. ويشاهد التليفزيون.. ويتكلم فى التليفون.. ويركب القطار.. ويشكو من الفقر.

أما الغنى، فإنه يستطيع أن يطير فى الهواء على طائرته الخاصة وينطلق فى البحر على ظهر باخرته الملاكى.

شىء رهيب.

إننا بالنسبة لأهل ذلك العصر.. سحرة.. مردة.. شياطين.. آلهة.. إنهم لو بعثوا من قبورهم.. وشاهدونا.. يركعون سجداً.. من الرهبة.. والدهشة.. والإجلال.

لو استمعوا إلى أصواتهم وهى تسجل على أشرطة وتبعث من جديد حية نابضة.

لو شاهدوا صورهم وهى تسجل فى التليفزيون.. وتتحرك كأن بها مساً.

إن التدرج البطىء الذى حدثت به هذه الحوادث فى الزمان هو الذى أطفأ جدتها وجعلها تبدو مألوفة.. ولكنها فى الواقع خارقة ومدهشة وإذا أدركنا أنه بينما الإنسان قد قفز بعقله هذه القفزة الهائلة.. فإن جميع الحيوانات حواليه ما زالت على عهدها كما ألفها منذ ستة آلاف سنة.. ما زال القرد يأكل بنفس الطريقة ويقفز بنفس الطريقة من شجرة إلى شجرة، بدون هليكوبتر.. والنمل ما زال يخزن مئونته من فتات الطعام بنفس الطريقة البدائية بدون ثلاجات.. والجواميس ما زالت ترعى الكلأ.. لم تفكر مرة أن تصنع منه سلاطة أو تطهيه بالمايونيز.. أو تتعاطاه أقراصاً.

كل شىء واقف فى مكانه.. بينما الإنسان وحده يقفز.. ويطير.. إذا أدركنا هذا، فإننا سنشعر بأننا ننفصل ونبتعد بسرعة عن أصلنا.. كسلالة متفوقة.. وخلفنا حيوانات تنقرض وتضمها المتاحف والحفريات فى ثنايا الصخر.

نجرى إلى الأمام بسرعة.. إلى الفضاء.. وما وراء الفضاء.. ووراءنا الحياة ما زالت تأكل الطين وتعض فى الحجر.

نحن فى حالة هجرة أبدية مبتعدين عن جذورنا الحيوانية وأرضنا.. مغتربين أبداً عن أسرتنا الأولى التى عاصرناها منذ فجر التطور.. حينما كنا نسبح متجاورين معاً فى مستنقع واحد.. ونتسلق الشجر مع القردة فى عصرنا الحجرى.

إن أحفاد أحفادنا الذين ستلقى بهم عقولهم المتفوقة إلى ما وراء الفضاء سوف ينسون أصلهم وتاريخهم وسوف يبدأون صفحة جديدة على كوكب جديد وكأنهم ملائكة بلا ماض.

ذلك الماضى البعيد الذى كانوا يعضون فيه الحجر وينهشون

اللحم نيئاً ويتعشون هم وكلابهم على مائدة واحدة من عظام الحيوانات التى اصطادوها.

ذلك الماضى الذى يحكى لهم أصلهم الواطى، لن يذكره أحد منهم.. هؤلاء المحظوظون الذين ستفتح لهم الجنة أبوابها على مصاريعها.. إنها حدوتة عجيبة.. كحواديت ألف ليلة وليلة.. وخيال أبعد من كل الخيالات التى تخيلها مؤلفو الخرافة.

ولكنها الحقيقة برغم هذا.

وحينما أدير جهاز التسجيل.. وأستمع إلى أصواتنا التى حفرها ذلك الحفار الكهربى على الذرات ورسمها على الهباء ونقشها على الإلكترونات.. أشعر بأنها الحقيقة.. فهذا أنا.. أنا الذى أتكلم.. وهذه ضحكتى.. وقد خرجت من ظلام المادة العمياء.. من نعش الإلكترونات وذريرات الهباء.

وهذا هو العقل الرائع الذى يحمله الإنسان القزم بين كتفيه.. ويبتعد به بعيداً عن أصله.. ويقفز به فى كل لحظة سنوات وأجيالاً إلى الأمام.. وهو العقل الذى سوف يرمى به فى رمية واحدة إلى أطراف الكون حيث يعيش ويتكاثر وينعم.. وينسانا.. وينكرنا.. نحن أجداده الذين حملنا الطين على أكتافنا لنبنى له غرفات مهده التى ولد فيها.



البحث عن زوجة!

يا سادة يا كرام..

أغلى شىء فى الدنيا هو العلم.

والإنسان لا يتعلم مجاناً.

وإنما يستخلص المعرفة بالألم والمعاناة.

من مكتبة الحياة نأخذ علمنا الحقيقى، وليس من الكتب والأسفار.

وأقدم لكم نفسى أولا.

دكتور توفيق زكى دكتوراه فى الذرة والعلوم النووية من امريكا أب لولدين وزوج للمرة الثانية.

وحكاية المرة الثانية هى الموضوع.

وكالعادة كانت هناك مرة ثانية لأن الزواج الأول فشل بجدارة.

وكانت فكرتى فى الزواج الأول هى البحث عن ست بيت وأم وامرأة تقدس الحياة الأسرية، لا يهم الثقافة ولا التعليم ولا الشهادات، واخترتها ساقطة ابتدائى تكاد تفك الخط، لكن طباخة ممتازة وأستاذة فى تسبيك الصوانى والطواجن، وتنفيض

السجاجيد وإرضاع الأطفال.

لكن كالمعتاد وبعد الشهور الأولى وبعد أن شبعت المعدة وامتلأت الأمعاء، وأصبحت المسألة الطريفة حكاية مكررة كل ليلة، بدأ النكد يدخل إلى البيت السعيد، وبدأت أشعر بالفجوة الهائلة بينى وبينها وبدأنا نختلف كل يوم فى كل شىء.. وأصبح الشارع يسمع صراخنا كل ليلة.

وبرغم نومنا متعانقين فى فراش واحد كنت أشعر بأن بيننا قارات، وأن كل واحد فينا يسبح فى محيط.

لم يكن هناك أى شىء مشترك يجمعنا سوى طاجن البطاطس بالفرن، وصوانى المحشى وأطباق الكوسة بالبشاميل، فإذا غسلت يدى بعد الغداء عدت إلى الوحدة والغربة وكأنى مجرد نزيل فى فندق أجنبى.

عجزت تماماً عن أن أشدها إلى أى اهتمام مشترك، حتى لو إلى الصحيفة اليومية وأعمدة الأخبار وحوادث الأسبوع.

كانت إنسانة عقلها مغلق على ثلاث غرف وصالة، لا يهمها ما يجرى فى فيتنام وكمبوديا ونيكاراجوا، ولا يعنيها ما يجرى فى جارة عربية قريبة مثل فلسطين.

ويستوى عندها أن تحترق لبنان، أو تندك بغداد أو تنفجر دمشق أو يخرج الشاه من إيران، ويحكمها خومينى أو خلقلى أو بازرجان مادامت قد وجدت البصل فى الجمعية التعاونية، والأرز عند البقال والجرجير عند الخضرى.

فإذا حاولت أن أفتح معها هذه الموضوعات اسكتتنى بغلظة، فإذا حاولت أن أتلطف ناولتنى لكمة وهى تقول:

نام بلا وجع دماغ أنا ما صدقت نيمت الواد.

وتصوروا ما يحدث لى يا سادة فى هذه الوحدة والغربة والخواء حينما أتعرف بالأخرى د. شهيرة سرور الأستاذة فى الكونسرفتوار وعازفة البيانو، والحائزة على ماجستير ودكتوراه فى التوزيع الكورالى وفى الهارمونى من باريس.

السيدة الناعمة الحريرية التى تكاد تذوب فى الفم من فرط نعومتها، والمتحدثة الرقيقة الودودة والفنانة الأنثى والنجمة التى لا ينطفىء لها تألق.

ويمكن لكم أن تتصوروا كيف أصبحت مكالماتنا فى التليفون تمتد إلى خمس وست ساعات ولا نشبع، فنلتقى على النيل ثم تأخذنى إلى بيتها لتسمعنى معزوفة رقيقة على البيانو، ثم تحكى لى تاريخ هذه المعزوفة وكيف ومتى كتبها بيتهوفن.

نسيت أن أقول لكم إنها طُلقت بعد زواج فاشل.

وهذا طبيعى.. فمَنْ يستطيع أن يفهم ويقدر هذه التحفة الجمالية النادرة.. ومَنْ يستطيع أن يعاشر هذا الفن الرفيع إلا إنسان ذواقة.

ولقد كنت أنا ذلك الذواقة.

ولقد جننت بها حبا.. وامتلكتنى حتى ملأت على أقطار حياتى وأصبحت لا أرى سواها، ولا آكل سواها، ولا أشرب سواها ولا اتنفس سواها.

وكان طبيعياً أن يرتمى كل منا فى حضن الآخر كأنه يتيم وجد امه، وأن نغرق فى حمى من الانصهار العذب الذى لا تجدونه إلا فى الكتب والأشعار والسيمفونيات.

وكان طبيعياً جداً أن أطلق زوجتى وأتزوجها وأنا أحلم بأقصى الراحة، وبأنى قد وجدت أخيراً شقة خالية فى صدر امرأة.

ولكن القـدر خلاف الظنون، والدنيـا التى أرادها الله تعبـا للكل ما لبثت أن قدمت صورة أخرى من زواج طريف غاية الطرافة.

واسمعوا معى نموذجاً من هذا الحوار الذى يجرى بيننا.

الوقت صباحاً، وأنا أميل عليـها وأمسح على شعرها فى حنان وأهمس فى أذنها:

– إيه رأيك يا حبيبتى..نأكل إيه النهاردة.

– زى امبارح يا حبيبى .

– احنا ما كلناش امبارح يا حبيبتى.

– لحقت تنسى سندويتشات الأمريكانا اللى جبتها لك معايا.

– نفسى تعملى لى الملوخية بـتاعتك.. ده انتى ملوخيتك تجنن.. أنا قربت أنساها بقى لك شهر ماطبختليش حاجة.

– مش حاسة أنى عاوزه أقف فى المطبخ.

– أمال حاسة بإيه؟

– حـاسة بأنى عـاوزه أدور حواليـن الهرم وأسـمع كاسـيت لشوبان.

وأخذها معى إلى الهرم.

ونطوف حـول مقـابر الأسـرة السـادسة ونحن نـسـتـمع إلى معزوفة القـمر لشوبان، ونسرح فى التاريخ والجغـرافيا والحكيم أمحوتب.

وتكلمنى طويلا عن الحكيم أمحوتب.

وأقطع حديثها محاولا أن أكون رقيقاً غاية الرقة.

– ولكن أظن أن أمحوتب يا حبيبتى كان يأكل.. وكانت زوجته الحبيبة تصنع له أشهى الأطعمة.

– لا أظن .. أنت تخلط يا حبيبى بين أمحوتب وبين أبو شقرا..

...بيك أنك لا تقرأ كفاية فى التاريخ.

– لقد قرأت وقرأت حتى جعت من كثرة القراءة.

ونشترى كنتاكى فى الطريق.

ونعود إلى البيت.

وتتمدد على الفراش وتسرح..

ثم تبتلع حبة فاليوم .. ثم حبة ليبريوم وأحاول أن أتقرب منها فتقول فى فتور:

– سيبنى شويه.

– مالك.

– جوايا تعبان .. حاسة جوايا بكآبة وضلمة وعتمة.

وليل .. الدنيا جوايا ضلمة أوى.

– أنا يا حبيبتى أنورها لك.

فتنظر إلىَّ نظرة فارغة كأنها لا تعرفنى إطلاقاً.

وكأنى رجل لقيط التـقت به صدفة، وأخذته إلى بيتـها وقدمت إليـه طعامـاً على سبـيل الإحسان.. وأن عليـه الآن أن يرحل وأن يعود إلى حال سبيله دون كلمة.

وأقترب أكثر وأهمس فى حنان .

– حبيبتى .. أنا جنبك.

– أنا عندى صداع يا توفيق.. أنا مش شايفاك.

ولا شايفة حد.

وأهتف فى أعماقى : يا نهار أسود عليك يا توفيق.

وعلى بختك.. ثم أعود، فأحاول أن أتودد إليها.

– أجيب لك كولونيا تنعش ..

– سيبنى لوحدى.. نفسى أقعد سنين لوحدى.

سنين.. سنين .. نفسى أحط الحمل اللى على كتفى وأنام.

– حطيه على كتفى أنا.

– جوايا كلام كتير مش عاوز يطلع.. كيانى مسروق منى.. بدور على عنوان نفسى مش لاقياه.. متهيأ لى أنى مشيت فى الشارع الغلط.

– أنا مش فاهمك.

– أنا اخترتك من أربعين مليون إنسان عشان تصورت إنك حاتفهمنى وأنك حاتحس بى.

– حا أحس بإيه يا حبيبتى ده انتى معيشانى فى ألغاز.. دنا بنام مع أينشتين.. أنا الدكتور فى الذرة والعلوم النووية واللى مسكت الإلكترون.. مش قادر أمسك أفكارك.

– نفسى نبعد عن بعض شويه يا توفيق.

– نعم .. ؟

– يعنى كده تسافرلك كام يوم إسكندرية تغير جو عشان توحشنى شويه.

– كمان.. أكثر من كده.. ده احنا بقى لنا شهرين ما قربناش لبعض.

– كمان شهر .. ما يجراش حاجة.

– ده أنا بقالى خمسة أشهر بقولك اعملى لى كيكة تبصى لى كأنى باتكلم مالطى أو هيروغليفى.

– ياه دنا نسيت خالص حكاية الكيكة دى.. عجيبة.. الله يضحكك يا شيخ.

– وكل ده واحنا فى شهور العسل أمال بعدين حانعمل إيه.. ده انتى بتكلمى البيانو أكثر منى.. بتعرفى عن فطور شوبان ومزاجه

الشخصى أكثر من اللى بتعرفيه عنى.

كل يوم برجع تعبان بعد يوم مرهق من الشغل المتواصل فى العمل ألاقيكى بتقوليلى عندى انغلاق ذاتى وتقلص نفسى وانكماش روحى.. أجى ألمسك تقوليلى.. سيبنى شويه.. حاسة الشمس بتغرب جوايه.. عاوزه أموت.. أتلاشى.. ومرة تقوليلى حاسة أن سقف عقلى وقع، وأن جدران قلبى اتهدت.. وفيه حاجة بتسوينى بالأرض.. ومرة تقوليلى.. العصافير بتغنى فى صدرى.. عاوزه كل الرجالة يبوسونى، وأشد شعرى من الجنون فتقوليلى:

– ما هو كل الرجالة يعنى أنت يا حبيبى.. من أمتى أنا حبيبك وانتى عايشة فى فلك وأنا فى فلك.. توصلنى منك كلمة بالتلكس وتضيع ألف.. أنا وحيد يا شهيرة .. وحيد.

– وأنا وحيدة أكثر منك يا حبيبى.

– أمال احنا فى حضن بعض ازاى.

– ساكنين بالصدفة سوا فى نفس الشقة فى الدور الثانى على النيل. وبنبص احنا الاثنين للسقف.

– بالضبط وده هو الشىء الوحيد المشتركين فيه للدرجة دى ممكن يتغير الناس.. أمال فين الدموع والآهات.. فين أغانى الحب. كانت معزوفة بيانو.. عمود شعر فى صحيفة يومية اتقطعت مع الأيام وبقت ورق تواليت.. ساعات بحس أن مش بس لازم نبعد كام يوم.. أبدا.. ده احنا لازم نتعرف على بعض من جديد.. لازم نقابل بعض صدفة فى الصالون الأخضر، وأعزمك على شاى فى جروبى وأسألك على نمرة تليفونك.. وأقول لك اسمك ايه يا مدام.

– صحيح فعلاً .

– احنا مش متجوزين يا حبيبتى .. احنا متطلقين جداً.

– صحيح فعلاً متطلقين.

وهكذا طلقت الثقافة الرفيعة والدكتوراه والماجستير فى الكورال والهارمونى والتحفة الجمالية.. د. شهيرة سرور.. لأنى لم أعرف ماذا تريد ولا ماذا تحب ولا ماذا يرضيها.. ظننت فى لحظة أن أقصى أملها أن تعيش معى.. فلما عاشت معى رأيتها تهرب منى وتعيش فى غيبوبة الفاليوم.. وتنطوى على نفسها حتى تشبه قوقعة حزن. وشككت فى عقلى وتفكيرى وعدت أشد شعرى من الوحدة والبؤس.

يا سادة يا كرام.

أنا أبحث الآن عن بائعة فجل أو بائعة جرجير.. مجرد إنسانة على الفطرة لأتزوجها وأعيش معها على الفطرة البسيطة التى خلقها الله.

امرأة تنظر إلى زوجها على أنه ربها وتغسل له رجليه وتطهو طعامه، وتشاركه مشاركة التوءم فى كل ما يشركها فيه دون جدل.

امرأة تنظر إلى كل ما ينطق زوجها على أنه سماوى ومقدس، وتحبه لأنها لا بد أن تحبه وليس لأن عندها انفتاحاً ذاتياً وانغلاقاً استبطانياً، يا سادة يا كرام أنا أعلن على الملأ أنى رجل رجعى وبدائى.. وأرى للأسف الشديد أن عصر الرجل انتهى!



الفهلوة!

من الآمال ما هى نقش على الماء وتشييد للقصور على الرمال. ومن التمنى ما هو تعبئة للبحار فى غربال وركوب الأهوال فى الخيال.

ومن هذا القبيل تصور الرجل الشرقى وهو قابع فى بيته وبدون جهد يذكر أنه يستطيع أن يبلغ ما بلغه قرينه الغربى الخواجة من تقدم وتفوق وعبقرية بمجرد الفهلوة والحداقة ودون أن يكدح كدحه فى الدرس والتحصيل ودون أن يعكف عكوفه المضنى فى مختبرات البحث والتجريب.

إن هى إلا شد نفس عميق من الشيشة وشطحة فى الخيال ويصل إليها فى خطفة واحدة وهى طايرة .. هكذا .. وهى طايرة .. هى إيه ..؟! .. هو نفسه لا يدرى.

وهو أمى لا يعرف حتى القراءة والكتابة .. ولا يدرى أن هناك لغة جديدة ظهرت فى الدنيا بعد الأبجديتين العربية والإجرومية

الإنجليزية اسمها لغة الكمبيوتر والإنترنت .. وإنه يجهلها كما يجهل الأبجديات العربية والإنجليزية واللاتينية .. ولا يعرف إلا لغة الحرام التى يتخاطب بها ويسمعها فى الأغانى ..

الفهلوة ..!! إنها نظرية كل شىء .. عند صاحبنا .

إنه يستطيع أن يفوز بجائزة نوبل بالفهلوة .. ويستطيع أن يكسب مليون جنيه بالفهلوة ..

وكل المطلوب أن يجذب نفساً من الشيشة ويشطح بخياله فتنزل عليه الفكرة وهى طايرة .. والدنيا حظوظ .. أرزاق يا عمى.. لوتارية .

وتايسون كسب مليون دولار بضربة « هوك » شمال .. هوك جابت القاضية إللى هيه .

وأينشتين كانت أمه داعيا له .

نظرية متكاملة يفسر بها كل شىء .. اسمها الفهلوة .. والحظ.. والبخت والنصيب .

أمية دينية .. وأمية اجتماعية .. وأمية أبجدية .. وفتاوى جاهزة فى كل شىء .. وحل جاهز لجميع المشكلات .. هو الفهلوة .. ونفس الشيشة الذى لا يخيب .

والفكرة التى تنزل عليه وهى طايرة .

وتنتهى الفكرة فى الغالب إلى عملية نصب وحصول على المال بالتحايل وشق الجيوب .. والدنيا لوتارية .. وأرزاق يا عمى .

تخلف مركب ومحصول ثقافى من الأغانى الشبابية والأفلام المصرية وشكوكو وفريد شوقى والمليجى .. هذه الشخصية تراها فى روايات نجيب محفوظ وفى حوارى الموسكى .. وهى شخصية مصرية لحما ودما وهى تجسيد لتخلف حقيقى يجمع كل

السلبيات الحقيقية للشخصية الشرقية .

ولكنها ليست كل الصورة ، فشخصية مثل أم كلثوم .. تعطينا صورة أخرى إيجابية لكفاح متصاعد وكدح نحو المزيد من التعلم والإتقان وذروة من الكمال النادر لفنانة لا تقل عن الكبار من فنانى الغرب النابهين .. ونجاح بأسبابه وليس بالفهلوة .. هذه امرأة أصابها التوفيق ولكنها صنعت نجاحها بعرق جبينها .. وهى مثال يقتدى .

والصورة الأخرى السلبية المتخلفة .. صورة صاحبنا الفهلوى.. يجب أن نتحرر منها ونخرج من إسارها .. فالدنيا ليست لوتارية.. والفهلوة لن تكسب لنا مكاناً فى هذا العالم .. ونتيجتها التأخر إلى آخر الصف والانتهاء إلى الحضيض .

دنيانا التى نعيشها لن يكسبها إلا كادح، مجد، مجتهد، يدرس ويكد إلى آخر يوم فى حياته ويذاكر ويتعلم إلى آخر نفس من عمره ..

وما دام قد قضى علينا بأن نناطح إسرائيل وتناطحنا إسرائيل.. وإسرائيل يؤيدها الغرب وتؤيدها أمريكا .. فقد أصبح الطريق واحداً ولا خيار .. أن نضاعف الجهد ونكثف العمل على جميع المستويات .. على مستوى العلم والثقافة والدفاع والفنون العسكرية وفنون التخابر والاستشعار عن بعد وفنون التفاوض والمداولة .. وأساليب المكر والتحايل والختل والخداع والحربائية .

وكل هذا لن يكفى ..

وإنما طاعة الله الذى أنزل علينا قصة هؤلاء اليهود فى قرآنه والذى وعدنا بالنصر فى صحيح آياته .. طاعة الله هى ناصرنا الوحيد لأنه صاحب العلم الكلى والقدرة الكلية والقوة الكلية .

العلم بما وراء النيات .. والعلم بما وراء المواثيق والتعهدات .. والعلم بخفايا الصواريخ والطائرات .. والعلم بأين ومتى وكيف .

وما أحوجنا لهذا الرب الكريم فى كل آن .

ولقد فاز مَنْ تحصن به وتسلح بآياته وقاتل له وعاش ومات فى طاعته .

وهذا هو المختصر المفيد فى قصة صراعنا مع إسرائيل .. وصراعنا مع الدنيا كلها .

وهو دليلنا الوحيد مع إسرائيل .. وصراعنا مع الدنيا كلها .

وهو دليلنا الوحيد للفوز والنجاة دنيا وآخرة .

الإنسان العادى

كل واحد منا له شخصية مفردة يتميز بها مثل بصمة أصبعه لا يشاركه فيها أحد ..

لا يوجد إنسان عادى .. لا يوجد نموذج مثل « الباترون » الذى يقص عليه القماش ليفصل منه آلاف الموديلات المتشابهة . .

وإنما كل واحد موديل مبتكر فى ذاته .. نمط فريد .. نسيج وحده ليس له شبيه .. وليس له ثان ؟؟

كل واحد ملامحه تجعل منه فلان الفلانى بالذات الذى ينفرد ويمتاز بأشياء لا توجد فى أحد غيره .

ليس صحيحاً أن الله يخلق من الشبه أربعين .. وإنما هناك دائما فروق طفيفة فى اللون .. فى البشرة .. فى النظرة .. فى اللفتة .. فى الشخصية .. فى التفكير .. تجعل تشابه اثنين وتطابقهما مستحيلاً .. تجعل كلا منهما قالباً معيناً .

لا يوجد شىء يمكن أن نسميه قالباً عادياً للشخصية الإنسانية، فالشخصية الإنسانية دائما مبتكرة .. دائماً جديدة .. دائماً خاصة

بصاحبها .. غير قابلة للتعميم .

وما نسميه « بالإنسان العادى » .. هو فى الحقيقة نموذج فى الذهن .. صورة فى الخيال مجردة من الصفات التى تستوقف نظرنا .. فالوجه العادى مثلاً هو وجه .. مش مطاول .. ومش مدور .. ومش مربع .. ومش مسحوب .. ومش مبطط .. لكن هو إيه ؟! .. شكله إيه ؟.. لن تستطيع أن تشبهه بأى وجه تعرفه .. لأن كل الوجوه فى الواقع غير عادية . كل وجه فيه شىء يجعل منه وجهاً مميزاً ..

وبالمثل شخصياتنا .. كل شخصية فيها امتياز .. فيها جانب تفوق .. فيها استعداد لشىء .. فيها بذرة عبقرية .. ولكن هذه البذرة لا يفطن لها صاحبها ولا يكتشفها ولا يدركها، فتضيع عليه .. ويخيل إليه أنه إنسان عادى .

ونحن فى العادة نموت قبل أن نكتشف مواهبنا وقبل أن نتعرف على مميزاتنا .. نموت بحسرة أننا أناس عاديون .

إن أم كلثوم كان من الممكن ألا تكتشف صوتها .. وكان من الممكن أن تضيع كأى فتاة قروية تسرح فى الحقل وتقضى حياتها تربى الدجاج وتطعم البط لولا أن اكتشفها الملحنون واحتضنوا صوتها .

وكمال الطويل ضاع نصف حياته فى محاولة الغناء قبل أن يكتشف أنه ملحن .

وعبد الحليم حافظ ضاع نصف حياته فى محاولة التلحين قبل أن يكتشف أنه مغن .

من قبل أن يكتشف كل واحد من هؤلاء الثلاثة موهبته كانوا جميعاً مجرد أناس عاديين .. ولكن الحقيقة أنهم لم يكونوا أبداً

عاديين .. وإنما كل واحد منهم كان من البداية عنده هذا الشىء فيه تلك البئر التى تنتظر الكشف عنها والدق عليها .. لتنبثق فى ينبوع من النعمة الإلهية لا ينضب إلا بالموت .

والسر فى أن أغلب الناس عاديون .. إن اكتشاف الإنسان لنفسه وتعرفه على كنوزه ومواهبه ليس شيئاً هيناً .. وإنما هو اكتشاف أصعب من غزو الفضاء .

وقليلون جداً هم الذين يستطيعون أن يقوموا بهذه الرحلة الشاقة إلى داخل نفوسهم .

إنها رحلة أصعب من رحلة كولومبس وجاجارين .

إن رحلة كولومبس إلى أمريكا كانت رحلة لها خريطة وبوصلة وفيها معالم وحدود وبحر وأفق وأرض وسماء .

ورحلة جاجارين كانت فيها مئات الأجهزة والعدادات والرادارات والموازين والمكاييل والمناظير .

أما رحلة الإنسان لاكتشاف نفسه، فإنها خبطة عشواء فى الفراغ .. فى أغوار نفس مظلمة ليس لها سقف ولا قاع ولا خريطة ولا معالم .

ونحن مثل حجارة الولاعة .. الطريق إلى اكتشاف طبيعتنا لا يكون إلا بالتعامل بالاحتكاك بالاصطدام بالعالم فى سلسلة من التجارب والخبرات .. بهذا وحده تنطلق شرارتنا وتتكشف ذخائرنا المكنوزة . لنكتشف نفوسنا لابد من الخروج من نفوسنا والارتماء فى الواقع والاحتكاك بالناس والمجازفة والمغامرة والتعامل بالحب والكراهية ومعاناة الألم والعذاب وخيبة الأمل .

النهاية !

هل خطر على بالك وأنت تتأمل السماء فى ليلة صافية أنك لا ترى من هذه السماء إلا ٥٪ وربما أقل من محتوياتها مهما استخدمت من مناظير ومجسمات وأدوات استشعار .. وأن ٩٥٪ من محتويات هذه السماء وربما أكثر تظل محجوبة عنك .. لأنها كتل سوداء مظلمة لا يخرج منها ضوء ، وسحب من العوالق والأتربة ممتدة مترامية بلا حدود .

ويقول رجال الفلك : إن هذه المادة السوداء المظلمة هى مجموع الغبار الكونى وسحب الغاز البارد وفقاعات كونية سابحة فى الفضاء وكتل مادية جوفاء وثقوب سوداء ونيازك وبقايا نجوم ميتة .. وجسيمات دقيقة وفتافيت ذرات هائمة فى تجمعات سحابية مثل: البروتونات والنيوترونات والباريونات والكواركات وجسيمات النيوترينو التى تخترق الأرض وتخرج من الناحية الأخرى فى سرعات مذهلة مثل السهام الخفية .. هذا عدا الأجسام

الكبرى العملاقة كالنجوم والشموس والمجرات والكواكب والتوابع والأقمار التى تدور فى أفلاكها .

وافتراض وجود هذه المادة السوداء الخفية كان سببه أن النجوم والشموس والكواكب والكتل المجرية العملاقة لا تكفى بمجموع كتلاتها للاحتفاظ بتماسك مجموع الكون ككل .. وتأثيرها الجذبى لا يكفى لجمع شمل العناقيد الكونية الهائلة من مجرات وتوابع لتسبح فى أسرة متحاضنة كما نراها .. وكان لابد أن تنفرط لولا وجود هذه المادة المفترضة .

والمعضلة معضلة حسابية وإحصائية ، فحاصل جمع الكتل الموجودة والمرئية بمناظيرنا وكاميراتنا الفضائية ومجساتنا لأشعة إكس وأشعة جاما والأشعة تحت الحمراء ومنظار هابل تقول إن مجموع المادة الموجودة أقل بكثير من المقدار الذى يفسر هذا التماسك الجذبى القائم .

ولو أن ما نرى هو كل المادة الموجودة لكان لابد أن ينفرط هذا الكون بدداً ، ويتناثر فى الفضاء ويضيع ويبرد وينطفىء ولا يجتمع له شمل .. فهناك حد أدنى من الكتلة لتكون هناك قبضة تمسك البنيان الكونى .. وكان لابد من الافتراض أن أكثر من تسعين فى المائة من مادة الكون خافية وغير منظورة ولا يخرج منها أى ضوء يدل عليها .. وأنها لابد أن تكون موجودة قطعاً برغم أننا لا نراها .. لتكون هناك تلك القبضة الملحوظة التى تمسك بالكون المرئى .

وعلماء الجاذبية يؤكدون أن هناك حداً أدنى من الكتلة لتتماسك

هذه الأسرة الهائلة من المجرات والنجوم والشموس والكواكب والأقمار ولترحل كما نراها وهى متحاضنة فى هذا الفضاء اللانهائى .

فإذا كانت الكتلة أكبر، فإن المجموعة تنهار على بعضها وتنكمش وتتكدس وتتضاغط وتنصهر وتجرى عليها أقصى درجة من « الهرس » الجذبى وترتفع درجة حرارتها وتتحول إلى عجينة نارية ثم تنضغط إلى حد أقصى من الانضغاط وإلى حد أقصى من الصغر .. ثم تعود فتنفجر وتتمدد وتتناثر فى الفضاء لتعيد قصة الانفجار الأول الذى بدأ به الكون .. ثم تنتشر فى السماوات السبع وتتشكل على صورة نجوم وشموس ومجرات سابحة مرتحلة .. كما هى فى عالمنا المشهود الآن ..

وتظل تتمدد وتتباعد بفعل قوة الانفجار حتى تخمد هذه القوة.. فينشأ ما يسمى بالكون المتعادل بين قوتين : القوة الجاذبة المركزية .. والقوة الطاردة المركزية ..

ويستمر هذا الكون عدة مليارات أخرى من السنين ..

فإذا استمر التباعد وتغلبت القوة الطاردة المركزية على القوة الجاذبة المركزية بسبب صغر الكتلة، فإن القبضة تظل تضعف وتضعف ثم يتناثر الكون بدداً فى الفضاء .. وذلك هو الكون المفتوح فى لغة علماء الفلك .. فهو فى تمدد أبداً وفى تناثر دائم لا يجتمع له شمل .

وإذا حدث العكس بسبب ضخامة الكتلة المادية، فإن الكون ينهار على بعضه بسبب ثقله ثم ينكمش ويتضاغط إلى نقطة

الانفجار الأول .. وذلك هو نموذج الكون المغلق فى لغة الفلكيين .

يقول ربنا عن الساعة فى القرآن :

﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

فيربط سبحانه وتعالى بين « الثقل » والانهيار الكونى فى كلمة « ثقلت » .

وهى إشارة علمية بليغة تفوت الكثيرين .. وسبحان الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً .. فكلمة « تثاقل » .. هى الترجمة الحرفية لكلمة gravitation أى الجاذبية .

وهذه معجزة البيان القرآنى الدقيق الذى لا تنتهى عجائبه .

والمعنى المستفاد من كل هذا أن الكتلة المادية لمجموع الكون هى التى سوف تحدد سلوكه وسوف تحدد نهايته .. ولأننا لا نرى مجموع هذه المادة ولا نشهد منها إلا الجزء الذى يشع ضوءاً .. ويخفى علينا تماماً جانب المادة السوداء المظلمة ولا ندركها إلا تخميناً واستنتاجاً من حساباتنا .. فإننا لن نعلم متى ستأتى لحظة الانهيار الجذبى ومتى تقوم الساعة برغم أننا نعلم أشراطها وعلاماتها .

وتلك لفتة أخرى لدقة البيان القرآنى : « لا تأتيكم إلا بغتة » .

أى أننا سوف نفاجأ بها ولن تدركها حساباتنا برغم توقعنا لحدوثها .. فهناك عنصر ناقص فى هذه الحسابات لن ندركه بوسائلنا .. وهو المادة السوداء المظلمة ومداها وكتلتها بالضبط .

وهذه هى « س » فى المعادلة التى لا سبيل إلى تحديدها كمياً وهذا هو التحدى الذى يواجه العلماء .

أى أننا لن نعلم « بالضبط » مقدار هذه المادة السوداء المظلمة .

وبالتالى لن نستطيع أن نحدد ساعة الانهيار .

وهناك جنون فلكى الآن حول هذه المادة السوداء .. وهناك سباق محموم بين كل المراصد ومراكز الأبحاث الفلكية للوصول إلى الماهية الحقيقية لهذه المادة السوداء وكميتها وكتلتها .

والخلاف على أشده بين كل مراكز البحث .

ولكنهم كلهم متفقون على أنها حقيقة وأنها تملأ السماوات .. ولكنهم مختلفون غاية الاختلاف فى مقدارها .. وفى ماهيتها .

ولفتة أخرى للدقة القرآنية فى خطاب الله لموسى عن الساعة .. يقول ربنا : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) ﴾ [طه]

يقول ربنا (أكاد أخفيها) ولا يقول أخفيها .. أى أننا سنعلم أنها آتية .

والكلمة غاية فى الدقة ، فالفلكيون الآن يعلمون أنها آتية لا شك وأنها مرتبطة بالزيادة التراكمية للكتلة .. ولكنهم لا يعلمون مقدار هذه الكتلة الكلية بسبب المادة المظلمة التى لا يخرج منها ضوء ولا تدركها المناظير .. وبالتالى لا يستطيعون حساب موعد الانهيار بالضبط لأن الرقم الكلى مجهول .

وآيات مثل: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) ﴾ [القمر]

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى]

﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) ﴾ [القيامة] .. كلها إشارات إلى استحالة التحديد ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) ﴾ [القيامة]

ولا يجمع الشمس والقمر إلا فى الانهيار الجذبى الذى ينهار فيه الاثنان بجاذبية المركز ، ويتحول الكون كله إلى عجينة واحدة تهرسها الجاذبية هرساً ..

ولا شك أنها ستكون حالة مشهدية خارقة تخطف البصر لغرابتها .. هذا إذا ظل المشاهد قادراً على المشاهدة وإذا لم يتحول إلى بودرة أو مسحوق .

والأمر لا يمكن وصفه، فهو كارثة كبرى بكل المقاييس، يتضاءل أمامها كل ما نرى من سيول وأعاصير وزلازل وبراكين وصواعق وانهيارات جليدية ..

إنها النهاية التى لا يعلم إلا الله ماذا بعدها .



الحب القديم

الناس يفهمون الدين على أنه مجموعة الأوامر والنواهى ولوائح العقاب وحدود الحرام والحلال .. وكلها من شئون الدنيا..

أما الدين فشىء آخر أعمق وأشمل وأبعد .

الدين فى حقيقته هو الحب القديم الذى جئنا به إلى الدنيا والحنين الدائم الذى يملأ شغاف قلوبنا إلى الوطن الأصل الذى جئنا منه ، والعطش الروحى إلى النبع الذى صدرنا عنه والذى يملأ كل جارحة من جوارحنا شوقاً وحنيناً .. وهو حنين تطمسه غواشى الدنيا وشواغلها وشهواتها ..

ولا نفيق على هذا الحنين إلا لحظة يحيطنا القبح والظلم والعبث والفوضى والاضطراب فى هذا العلم، فنشعر بأننا غرباء عنه وأننا لسنا منه وإنما مجرد زوار وعابرى طريق ولحظتها نهفو إلى ذلك الوطن الأصل الذى جئنا منه ونرفع رؤوسنا فى شوق وتلقائية إلى السماء وتهمس كل جارحة فينا .. ياالله .. أين أنت ؟!

ولحظة نخطىء ونتورط فى الظلم وننحدر إلى دركيات

الخسران، فننتكس الرؤوس فى ندم وندرك أننا مدانون مسئولون.. فذلك هو الدين .. ذلك الرباط الخفى من الحنين لماض مجهول .. وذلك الإحساس بالمسئولية وبأننا مدينون أمام ذات عليا .. وذلك الإحساس العميق فى لحظات الوحدة والهجر .. بأننا لسنا وحدنا وإنما نحن فى معية غيبية وفى أنس خفى وأن هناك يداً خفية سوف تنتشلنا وذاتاً عليا سوف تلهمنا وركناً شديداً سوف يحمينا وعظيماً سوف يتداركنا .. فذلك هو الدين فى أصله وحقيقته.

وما تبقى بعد ذلك من أوامر ونواه وحرام وحلال وأحكام وعبادات هى تفاصيل ونتائج وموجبات لهذا الحب القديم .

ولكن الحب هو رأس القضية .. وإذا غاب ذلك الحب، فإن كل العبادات والطاعات لن تصنع دينا ولن تصنع متدينا مسلماً كان أو مسيحياً أو يهودياً .

وما كان الصليبيون الذين جاءونا غزاة طامعين .. على دين أى دين .. ولا كان سفاحو الصرب الذين يقتلون الأبرياء على أى ملة من ملل النصارى ولا كان إرهابيو اليوم الذين يفجرون القنابل مسلمين .. ولو صلوا جميعاً ولو صاموا الدهر ولو أطالوا اللحى وقصروا الجلابيب وحملوا المصاحف ورتلوا الآيات .. ما بلغوا من الدين شيئاً .

وهل بلغ النبى يحيا (يوحنا المعمدان) عليه الصلاة والسلام ما بلغه من نبوة إلا بذلك الحنان الذى كان يفيض منه والذى قال فيه ربه : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) ﴾ [مريم]

فتلك كانت أركان نبوته .. الحنان والزكاة والتقوى .

ونبينا عليه الصلاة والسلام الذى كان يحتضن جبل أحد ويقول :

هذا جبل يحبنا ونحبه ..

حتى الجماد كان موضع حب النبى وتوقيره .

وهذا ابن عربى يقول :

لن تبلغ من الدين شيئاً حتى توقر جميع الخلائق ولا تحتقر مخلوقاً ما دام الله قد صنعه .

وهذا ربنا يقول عن المؤمنين :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ..(٣) ﴾ [الحجرات]

فالقلوب هى دائماً موضوع الامتحان .

وحب الله وحب ما خلق وما صنع من أراضين وسماوات ونبات وحيوان وبشر هو جوهر كل الديانات الحقة .. وهو المقياس الذى نفرق به بين أهل الدين .. والأدعياء المشعوذين والكذبة .

وكل الدعاة الذين يغرقون أتباعهم فى التفاصيل والقشور والمظاهر ويبتعدون بهم عن روح الدين .. عن الحب والرحمة والتقوى ومكارم الأخلاق .. هم من الكذبة بقدر بعدهم عنها .

وما كان اعتراض المسيح على الفريسيين إلا لإغراقهم فى الجدل وفى حرفية النصوص وفى ظاهر الكلمات دون التفات إلى روحها .

وما كانت نقمة موسى على اليهود حينما أمرهم بأن يذبحوا بقرة .. إلا لإغراقهم فى الجدل والتنطع والسؤال .. أى بقرة تكون ما لونها .. بنية هى أم مرقشة أم صفراء .. عجوز بكر .. ادع لنا ربك يبين لنا ما هى .. أو لعلك تهزأ بنا .

هذا الجدل والغرق فى التفاصيل والتحجر على الحروف والكلمات أخرجهم من الدين فى نظر موسى واستحقوا عليه التقريع واللوم .

وللأسف الشديد التدين اليوم خرج من روح التدين بسبب انحراف الدعوة وانحراف أكثر الدعاة وإغراقهم فى القشور والتفاصيل والخلافيات والأمور الثانوية مما ألقى بأكثر المسلمين إلى الاختلاف والجدل والتعصب .. ومما خلق الذرائع لمحترفى الإرهاب ولهواة التعصب ، ومما أوجد هذا التدين السطحى المتهوس الأبله .

وأرى أننا مطالبون اليوم أكثر من أى يوم مضى بالعودة إلى روح الإسلام وإلى نبعه الشامل .. إلى فضائل الحب والرحمة والمودة والتقوى وسعة الصدر مع الخصوم وتدبر معانى النصوص وعدم الوقوف عند حروفها وقراءة بالقلب وليس بالأحداق ..

والإسلام ليس ألغازاً وليس لوغاريتمات ولا يحتاج منا إلى كل تلك الفتاوى .

والنبى عليه الصلاة والسلام أجاب مَنْ سأله عن الإسلام، فقال فى كلمات قليلة بليغة :

قل لا إله إلا الله ثم استقم هكذا ببساطة .. كل المطلوب هو التوحيد والاستقامة على مكارم الأخلاق .

إنها الفطرة والبداهة التى نولد بها لا أكثر .. أن تحب أخاك كما تحب نفسك .

أسأل نفسك .. هل تنام كل يوم على مودة وحب ورغبة فى الخير ونية فى عمل صالح ؟ أم على غل وكراهية وحسد وتربص؟ وستعلم إلى أى مدى أنت على دين الإسلام .

ماذا تخفى فى طيات ثيابك ؟ هل تخفى خنجراً أم مسدساً ؟ أم تخفى هدية حب ورسالة خير لإخواتك ؟

هل تخطط لتبنى أم لتهدم ؟

هل تنطق بالطيب من القول وبالنافع من الكلام ؟ أم تدعو إلى الخراب والدمار والفتن ؟

إن الدين لا يحمل سيفاً إلا للدفاع عن مظلوم ولا يعرف العنف إلا إصلاحاً .

بهذه المقاييس تعرف نفسك وتعرف الخانة التى يقف فيها ذلك الداعية الذى يدعوك إلى الإسلام .. وتعلم أين يقف .. مع الدين أم مع الإجرام .

إن الفطرة والبداهة دليلك .. ولست فى حاجة إلى فقه أو فلسفة أو فتوى .

قلبك يفتيك .

إنه الحب .. قلب القضية وروحها .. والجوهر الصافى لجميع الأديان وكل الرسالات .

أما الشرائع والأوامر والنواهى، فهى لتنظيم شئون الدنيا لا غير .. وهى تابعة للإطار العام .. إشاعة السلام والعدل والحب بين الناس .. وسوف يتوقف عملها فى الآخرة .. حينما لا يعود لأحد حكم أو سلطان .

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

انتهت وظيفة كل الشرائع وكل الأوامر .. لأن الأمر الآن أصبح أمام ملك الملوك مباشرة ، والتصريف تصريفه ، والعدل عدله ، والبطش بطشه .. ولم يعد لأحد الحرية فى أن يطغى أو يظلم .

ومجال الشرائع إذن محدود بوظائفها وزمانها .

وكما قال الفقيه الإسلامى العظيم .. العز بن عبد السلام .

فى زمان شيوع البلوى إذا أصبح تطبيق الشريعة مؤدياً إلى ازدياد المنكر، فإنه يحسن بالمسلم عدم تطبيقها (شهود الزور على أبواب المحاكم ويمكنك أن تستأجر أى واحد لتقطع به يد خصمك).

ومن هنا أفتى العز بن عبد السلام بعدم تطبيق حد الخمر على عسكر التتار لأن سكرهم وغيبوبتهم سوف تكف شرهم عن الناس وفى ذلك فائدة وخير .. بينما إفاقتهم سوف تؤدى بهم إلى معاودة الأذى والضرر وفى ذلك مزيد من المنكر .

لقد فهم ذلك الفقيه العظيم أن حكمة الشرائع هى إقامة المصالح فى الدنيا وأنها مرتبطة بالمنافع وليس لها حكم مطلق وأن مجالها محدود بوظائفها وزمانها .

وبهذا المعنى نفسه لم يطبق النبى عليه الصلاة والسلام حد القطع على السارق فى سنوات الحرب كما لم يطبقه عمر بن الخطاب فى عام المجاعة .

ونفس هذا الكلام يقال للغوغائيين من الدعاة والسطحيين الذين يطالبون بقطع الأيدى والرجم والجلد كعلاج للفساد الموجود.. وهم لا يعلمون أن الفقه الإسلامى نفسه لا يوافقهم على هذا الفهم السطحى والغوغائى .. فالعصر باعترافهم عصر شيوع الفساد وشيوع البلوى ، وبالتالى يستوجب فقهاً آخر ملائماً للظرف القائم .. لأن تطبيق الحدود العادية سوف يزيد المنكر نكراً، فالوزير والكبير الذى يسرق مئات الملايين عن طريق العمولات لن تنطبق عليه شروط القطع الفقهية التقليدية وسوف يعفى من القطع بينما النشال الذى يسرق خمسة جنيهات سوف تقطع يده وفى ذلك ظلم فاحش وتشجيع للكل بأن يسرقوا وينهبوا بالوسائل الملتوية من عمولات ورشوة واختلاس وتزييف وخلافه.. وفى ذلك حض على عموم المنكر .

وعلى باب أى محكمة يمكنك أن تشترى أربعة شهود زور لتقطع يد من تريد وترجم من تشاء .

وهؤلاء الدعاة الغوغائيون يقولون إفكاً من القول وزوراً

ويباشرون فهماً متحجراً ضيق الأفق لا يقول به أى فقيه مسلم مستنير وينسى هؤلاء عقلانية الإسلام ومرونته وتقديره للظروف .. ويأخذون من القرآن آية واحدة مقطوعة من سياقها ويغفلون روح القرآن فى مجموع آياته ونصوصه وهو كتاب أوله رحمة وآخره رحمة .

ألم يقل الإنجيل فى صريح آياته :

« إن أعثرتك يدك فاقطعها وإن أعثرتك عينك فاقلعها » .

وهو أمر بقطع اليد التى تسرق وفقء العين التى تزنى .. ومع ذلك لم يقل أحد من فقهاء المسيحية بهذا .. وإنما وضعوا الآية داخل مجموع آيات الإنجيل وسوره وقالوا بالروح العامة التى تشيع فى كتابهم .. وهى روح المحبة والرحمة والعفو والمغفرة.. واكتفوا بالعقوبات التعزيرية مثل : السجن والتأديب والغرامة .

بهذا المفهوم من الحب والرحمة يكون النظر إلى الشرائع فى إطار زمانها ومكانها وظروفها وفى إطار الرحمة التى أوجبها الله.. فهو سبحانه خلق لنا الشرائع لإسعادنا فى الدنيا وليس لتعذيبنا وخلق لنا العقل لنتدبر كلماته ولم يضع داخل رؤوسنا حجارة ولا جعلنا آلات تنفذ فى آلية بلا تدبر وبلا تفكير .. وأراد بروح النصوص أن تكون هى الحاكمة على حروفها .. وبدأ باسمه الرحمن الرحيم كل شىء .

وإسلامنا أوله رحمة وآخره حمد وأوسطه محبة .

والحب هو روح الوجود وهو سر ديمومته .. وهو النفحة الربانية التى بدونها تنهد أركان الشرائع جميعها وتزول النعمة وينعدم المعنى .

وبدون الحب فى قلبك لا يعود لوجودك معنى ولا لفضائلك معنى ولا لدينك معنى مهما أطلت اللحى وبسملت وحوقلت وصمت وحججت واعتمرت .

وغنى عن البيان أن المقصود بالحب هنا .. هو حب الحق وحب الخير وحب العدل ،وحب الجمال وحب المثل العليا وهى جميعها أسماء الله الحسنى ومسمياته .. فهو سبحانه وحده الذى له المثل الأعلى فى السماوات والأرض .. وهو الحق وهو العدل الحكم وهو بديع السماوات والأرض .. وكل جمال فى الكون يرتد إلى جماله وكل كمال فى الخلق يرتد إلى كماله .

وهذا هو الحب القديم الذى فطرنا عليه منذ أن خاطبنا ربنا قبل أن نولد وقبل أن نجىء إلى الدنيا هاتفاً بنا :

ألست بربكم .

فقلنا جميعا ونحن ننظر بتعلق وحب إلى وجهه الكريم :

بلى شهدنا .

وهذا الحب هو حقيقة كل الأديان وروح كل العقائد وأساس كل الملل وبدونه لا معنى لدين ولا معنى لدينونة .

وهذا الشوق النبيل هو الطاقة الدائمة وراء كل فن عظيم وكل إبداع رفيع، وكل فكر ملهم وكل استشهاد وكل فداء وكل بطولة .

وهذه النورانية فينا هى التى اقتضت سجود الملائكة وتسخير الكون .

وهى التى جعلت حياتنا رغم مشاقها وعذابها جديرة بأن نحياها .



العبرة .. ليست بالأحجام !

هل تصدق أن الأرض التى تقف عليها ويخيل إليك أنها ثابتة .. تنطلق فى الفضاء بسرعة ٦٥٠٠٠ ميل فى الساعة أى ألف ضعف سرعة أوتوبيس سريع .. وأنها مجرد فرد بين أفراد مجموعة شمسية تدور كلها حول الشمس .

وأن المجموعة الشمسية كلها ما هى إلا واحدة من عدة مجموعات تؤلف فيما بينها مدينة كبيرة اسمها المجرة تضم أكثر من مائة ألف مليون نجم تدور كما تدور عجلة هائلة حول نفسها فى الفضاء .. وأن الشمس تقطع الدورة الواحدة حول هذه المجرة فى ثلاثمائة مليون سنة علماً بأنها تجرى بسرعة ٧٢٠٠٠٠ ميل فى الساعة أى عشرة آلاف ضعف سرعة الأكسبريس .

وأن المجرة ليست إلا واحدة من عدد عديد من المدن النجمية كلها سابحة فى الفضاء .. وعندنا من هذه المدن النجمية مليونا مدينة كل منها مثل المجرة حجماً وضخامة .. وكل منها تبعد عن

الأخرى بمسافات هائلة شاسعة تبلغ من بعدها أن رسالة لاسلكية مرسلة من مدينة نجمية إلى أخرى تحتاج إلى ستة ملايين من السنين لتصل ويصل ردها .. أى أن ردها يصل بعد انقضاء ستين ألف جيل من الأجيال البشرية .

وأقصى هذه المدن النجمية المرئية تبلغ من بعدها عنا أن ضوءها يستغرق ١٤٠ مليون سنة ضوئية ليصل إلينا (الضوء يقطع فى السنة الضوئية ٦ مليون مليون ميل) .

ولقد أثبت أينشتين أن هذا الفضاء الكونى الهائل الذى تجرى فيه كل هذه الكواكب والنجوم محدب .. وأن شكله منحن .. وأنه ينحنى على نفسه ويتكور كما يتكور سطح الأرض .. وأنه أشبه شىء بفقاعة صابون هائلة فى غشائها الرقيق، توجد جميع المدن النجمية سابحة سائحة فى دورة مستمرة .

وأن هذه الفقاعة الكونية فى حالة تمدد مستمر والنجوم تجرى مبتعدة عنا فى سرعات خيالية .. والضوء يستغرق فى سياحته حول محيط هذا الفضاء الخرافى ٥٠٠٠٠ مليون سنة ليكمل دورة واحدة . ولكن لأن تمدد الكون أسرع من سرعة الضوء، فإن شعاع الضوء الذى يخرج من المدن النجمية على أطراف الكون لا ولن يصل إلى عيوننا إطلاقاً .. ولن تحيط أبصارنا بأطراف المعمورة الكونية لأنها تتمدد بسرعة أكبر من أن يلحق بها الضوء وينقلها إلى حواسنا ، فنحن محكوم علينا بألا نراها .

وفى الحسابات الفلكية الأخيرة أن مجموعة مادة الكون التى أمكن رؤيتها أو استنتاجها تبلغ تقريباً مقدار ١١٠٠٠ مليون مليون شمس ..

وفى الكون من النجوم ما يفوق حبات الرمال فى الصحارى عدداً . ومتوسط حجم كل نجم حوالى مليون مرة حجم الأرض .

وبعض هذه النجوم مثل نجم الجبار حجمه أكبر من الشمس ٢٥ مليون مرة .

وليس معنى ذلك أن الكون مزدحم بالنجوم ، فالحقيقة أن الكون مخلخل جداً وأغلبه فضاء خلاء .. وثلاث نحلات تائهة فى فضاء أوروبا أكثر ازدحاماً من النجوم فى فضاء الكون .

والكون يفقد مادته باستمرار .. ويفنى .. ويبرد شيئاً فشيئاً .. والشمس تفقد كل يوم ٣٥٠٠٠٠ مليون طن من وزنها يتحول إلى أشعة . وهى لهذا تضمر وتنطفىء رويداً رويداً .. وتضعف جاذبيتها على كواكبها وسياراتها، فتنطلق هذه متباعدة عنها .

وفى الفضاء البعيد تبلغ درجة البرودة ٤٨٠ درجة تحت الصفر .. الزمهرير .. وهى درجة تتجمد فيها كل السوائل .. وكل الغازات ..

هل أصابك الدوار من تخيل هذه الأرقام !

هل أصابك الهلع وأنت تتصور مكانك فى هذا التيه المخيف كذرة من اللاشىء فوق هباءة تافهة اسمها الكرة الأرضية بين ملايين ملايين الملايين من النجوم المردة والسدم العملاقة والمدن الفلكية الجبارة السابحة فى فضاء غريب منحن كفقاعة حول العدم .

هل أغمضت عينيك وغبت عن وعيك وأنت تعد وتعد .. وتتصور هذه المتاهات العجيبة .

لقد نسيت ما هو أعجب من هذه الاحصائية كلها .

نسيت عقلك .

إن عقلك .. يفوق كل هذه المتاهات .. لأنه وسعها .. واحتواها فى مداركه .. عقلك أدرك الكون .. وتفوق على الكون لأنه أدرك نفسه أيضاً ..

والعبرة ليست بالأحجام .. فكل حاملات الوراثة (الجينات) فى جميع المخلوقات البشرية منذ آدم إلى الآن لا تملأ فنجاناً .. ومع هذا، فهى على ضآلتها تحتوى على كل الخصائص التى أنتجت الآداب والفنون والحضارات بكل تصانيفها وحوادثها .. وفيها مستقر المواهب والعبقريات والنبوءات والفاعليات البشرية بكل خيرها وشرها .

والذرة على صغرها فيها طاقة تهدم جبلاً .

وبالمثل لا اعتبار للأطوال الزمنية .. فرب لحظة واحدة مليئة يحدث فيها من الأحداث ما تنوء به السنون الطوال ..

القيم لا تقدر بالموازين والمكاييل ولا تقاس بالأطوال .

ومستقر القيم فى وجدان ذلك الإنسان الذى يخيل إليك أنه شىء تافه حينما تقيسه إلى الكون .

معيار الحقيقة وصورتها فى قلبه .

المثل العليا فى خياله .

المستقبل رؤيا من رؤاه .

الحب والأمل والحرية وأحلامه .

قدس الأقداس روحه .

اللانهاية بين جنبيه .

الهوة التى فى داخله أعمق من الكون بما يحتويه من نجوم

وأفلاك .. فهى هوة بلا قاع .. وبلا سقف .. غير محددة ، غير متحيزة فى مكان .. غير ممتدة فى زمان .. وإنما هى ديمومة .. وحضور شعورى .. أشبه بالحضور الأبدى .

فهو يعيش فى آنية دائمة .. يعيش فى « الآن » دواماً .. وينتقل من آن إلى آن .. وكأنه يمشى على وهم .. كل خدع الحواس .. كل صور العالم الفانى حوله لا تهمه .. كل التغييرات التى تكتنف العالم المادى لا تنطلى عليه .. فهو يستشعر نوعاً غامضاً من الاستمرار .

إحساسه بكيانه يلازمه طوال الوقت، فلا يكاد يشعر بأن هناك وقتاً إلا حينما ينظر مصادفة إلى ساعة معصمه .. أو حينما يفطن إلى انصرام النهار حوله .

إحساسه الداخلى يصور له ديمومة مستمرة .

وعيه الداخلى ينظر دواماً إلى الأشياء وكأنه من معدن آخر غير معدنها .

معدن دائم لا يجرى عليه حادث الزمان والفناء .. فهو موجود ليس له بداية .. وليس له نهاية .

إنه هنا .. كان دائماً هنا ..

وفى الأحلام حينما تحمله أجنحة الوهم إلى الأماكن البعيدة التى لم يضع فيها قدماً يخيل له أنه رآها من قبل.. وأنه كان هناك.

وفى لحظات الصفاء .. يحس كأنما يستشف الغيب .. ويحدس المستقبل وكأنما كان فى ذلك المستقبل .. كأنه كان يضع قدمه هناك فى الغيب المحجب .

كل حواجز الزمن تسقط فى مجال رؤيته الروحية ، فيرى فى

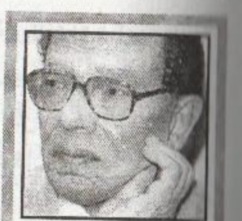
لمحات الإلهام عبر هذه الحواجز .. وكأنما انفتحت له طاقة يطل منها على الحقيقة الأبدية .

ولكنها لمحات .. مجرد لمحات كومض البرق الخاطف .. لا يكاد يطل منها حتى تعود حجب الزمان والمكان، فتسدل كثيفة على عينيه ، وتشمله آلية الواقع وتلقى به إلى هوة التكرار وكأنه أصبح واحداً من هذه الذرات المادية .. أو الأجرام الفلكية التى تدور فى عماء فى مجالاتها المرسومة بلا إرادة لتكرر دورة مقدرة لها .. ولا فكاك منها .. وتقعد به غلظة المادة .. وكأنها المرض يجعل كل شىء فيه ثقيلاً .. غليظاً .

هذا هو الإنسان العجيب الذى يجمع بين صفات المادة .. وبين صفات الروح ..

هذا هو الإنسان المعجز اللغز الذى يثيرنى أكثر مما تثيرنى كل هذه الملايين من النجوم والأكوان المترامية .

هناك فى حشوته الحية تحت عظام رأسه .. فى جمجمته وقلبه.. وفى نبضاته .. وفى وجيف أعصابه .. يكون السر الأعظم.. الذى تتضاءل إلى جواره كل هذه الأكوان .. وكل هذه الذرات التى تدور فى عماء الآلية والتكرار .



سر الجمال

الجمال فزورة ..

إنه حقيقة بديهية تشرح نفسها بنفسها للعين بدون منطق وبدون واسطة وبدون أسباب ..

فالمنظر الجميل يخطف عينك بلمحة واحدة .. فتهتف : الله .. بدون تفكير وبدون أسباب ..

والوجه الجميل يخطف قلبك، فتقف تحملق فى بلاهة وفمك مفتوح وتهتف : الله .

والموسيقى الجميلة تغمرك بالنشوة والطرب وتأسر حواسك من قبل أن يفيق عقلك على الأسباب .. ويفهم السر ..

وإذا سألت نفسك : ما السبب .. ما السر .. فى الحيثيات التى جعلت من الشىء الجميل شيئاً جميلاً مطرباً ، فإنك سوف تتعب

هل الشىء جميل لأنه نافع ؟!

إن الباخرة أنفع من القارب الشراعى ومع هذا، فالقارب الشراعى أجمل .. والسبورة السوداء التى يتعلم عليها الأطفال أكثر نفعاً من اللوحة الجميلة .. ومع ذلك فاللوحة أجمل ..

وحبة القمح أنفع من اللؤلؤة .. ومع ذلك فاللؤلؤة أجمل .. وجناح الفراش ليس فى حاجة إلى كل ما عليه وشى وزخرفة ونمنمة .. والطبيعة لم تكن بحاجة ملحة لتنقش كل هذه النقوش .. ونحن لم نكن بحاجة إلى هذه النقوش .. ولكننا مع هذا نفضل هذه النقوش ونراها أجمل ..

إن السر ليس المنفعة .

أيكون سر الجمال فى القيمة الخيرة للأشياء الجميلة .. لا .. إن الأخلاق مهما بلغت من السمو لا تستطيع أن تجعل من المرأة القبيحة ملاكاً .. إنها تصبح جميلة فى عين العقل وحده .. وقد يتزوجها الرجل من باب النصاحة والتعقل .. ولكن ليس من باب الإعجاب بجمالها .

وأخلاقية العمل الفنى وحدها لا يمكن أن تجعل منه عملاً فنياً جميلاً .. إنها تجعل منه عظة وخطبة .. وغالباً ما تكون عظة ثقيلة وخطبة سمجة بعيدة كل البعد عن الجمال .. وعلى العكس من ذلك نقرأ شكسبير، فنجد الشرور والآلام وقد كساها الفن أثواباً باهرة من الجمال أيكون الصدق هو سر الجمال ..؟

إن الصدق غالباً ما يكون خشناً يصدم الحواس ..

الصدق فى حاجة دائماً إلى سياق حلو وأسلوب جميل ليشرحه ويرسمه .

إن الجمال شىء آخر غير الصدق ..

إنه قيمة تطلب لذاتها .. وبدون حاجة لقيمة أخرى تبررها.. إنه لذة صافية تبرز نفسها بنفسها .. وشرارة تشعل فى نفوسنا النشوة والسعادة بدون وساطة .

وسر الجمال فى لحظة الاتصال بين نفس وموضوع .. بين عين وأذن وقلب .. وبين رسم جميل أو لحن عذب أو منظر أخاذ .

والجمال لا يوجد فى الرسم نفسه .. ولا فى اللحن بدليل أن الآذان البليدة .. والعيون البدائية قد يفوتها ما فى اللحن وما فى

الرسم وقد تنظر وتسمع فلا ترى ولا تسمع شيئاً .

سر الجمال فى النفوس التى ترى وتشاهد وتصغى .. ولحظة الإحساس بالجمال هى لحظة اهتزاز ورنين وانسجام .. وانعطاف بين النفس وبين موضوع اكتشفت فيه النفس ذاتها وأسرارها وحقائقها الدفينة ..

إنها حالة من التعارف بين المثل العليا القائمة فى النفس وبين الرسوم التى تشرح هذه المثل وتجسدها وترسمها .. وحالة من النشوة تتحد فيها النفس بموضوعاتها .. وتحصل من هذه الوحدة على الراحة واليقين .

إن الموضوع الجميل هو وثيقة من العالم الخارجى بأن النفس على صواب .. وإن خيالاتها ومثلها وقيمها الباطنية حقيقة .. ولكن ما حقيقة هذه المثل ؟

ما حقيقة هذه التركيبات المثالية من الشكل واللون والصوت والنغم الباطنة فى نفوسنا ؟

إنها تحصيل عملية طويلة من الانتقاد والحذف والإضافة .. عملية تركيبية تأخذ محسوسات الواقع وتصنع منها كيانات غامضة مثالية تحتفظ بها فى الخيال والذاكرة .

فى ذاكرة كل منا صورة مثالية للغروب والشروق .. والطفولة والإنوثة .. والرجولة .. هى محصلة من كل التجارب الواقعية وكل المدركات الحسية .. أعملت فيها النفس الحذف والإضافة والتعديل بما يتفق مع آمالها وأحلامها .

فى خيال كل منا نموذج غامض لحصان يتمنى لو اقتنى مثله .. ولامرأة يتمنى لو قابلها .. ولرجل يتمنى لو صادقه .

والفنان هو الذى يجسم هذه الأحلام .. ويقدمها للعين والأذن والقلب .. فتطرب وتنتشى وتشعر بهذه اللذة النادرة .. لذة العثور على أحلامها وأمنياتها .. وصورها الدفينة .

والفنان هو الوحيد الذى يستطيع أن يجسم هذه الأحلام .. لأنه

الوحيد الذى يشعر بها واضحة جلية مكتملة فى وجدانه .. أما الشخص العادى، فيشعر بها غامضة مهزوزة يكتنفها الضباب .

النفس إذن هى المرجع والأرشيف الذى يحتوى على مراجع الجمال وأصول الفتنة ، وهى التى تحتوى على شفرة العلاقات الجمالية كلها ومشكلة الفنان هى فى محاولته الدائبة لاكتشاف هذه الشفرة .. والتعرف على هذه العلاقات.

فالنغمات الموسيقية فى تتابعها .. هى مجرد استطراد لعلاقات.. وأبعاد .. وأطوال مجردة من الذبذبات .

إنها تشبه لوحة هندسية فراغية تتشكل فيها الخطوط والأبعاد تبعاً لعلاقات معينة .. أدرك الفنان بإحساسه أنها علاقات جميلة..

كيف أدرك الفنان هذا ؟

هنا اللغز ..

إنها الموهبة التى تجعل الفنان على صلة وثيقة بنفسه وبكنوزه أكثر من صلة الرجل العادى . والمكاشفة الداخلية التى يمتاز بها الفنان عن سائر خلق الله

إنها نوع من الجلاء البصرى الذى يتحدث عنه الروحانيون .. ولكن الفنان لا يحضِّر بها روح أحد .. وإنما يحضِّر روحه هو شخصياً .

وجورج سانتايانا الفيلسوف الأسبانى فى كتابه .. « الإحساس بالجمال » .. بعد رحلة طويلة من ٣٠٠ صفحة يبحث فيها سر الجمال يصل إلى هذه النقطة ثم يتوقف فلا أحد يعرف الحقائق الباقية التى تكتنف السر .. لا أحد سوى الفنان نفسه .. الذى يحل هذا اللغز شيئاً فشيئاً .. على مدى اللانهاية من عمر الدنيا .. وعمر الفن..

مَنْ أنت؟



ما هو الإنسان ؟

هل هو مجرد الصورة التى تراها لنفسك حينما تنظر فى المرآة؟!.

هل الإنسان هو مجموع ما فيك من شحم ولحم وعظم وأحشاء ومجموع ما تتألف منه من عناصر ومركبات وما ينطوى فيك من غرائز ورغبات وما يعيش فى عقلك من هواجس وخيالات ؟!

هل هو مجموع المنظور والمحسوس والملموس فيك ؟

لا أظن أن هذا هو أنت .

هذا هو ما يظهر لك ولى ولأجهزة التصوير والاستشعار المختلفة .. هذا هو مجرد الجانب المشهود منك .

أما حقيقتك ، فهى فى « العمق » .. فى الجانب الذى يخفى عنا وعنك وعن جميع أجهزة الاستشعار وجميع وسائل الحساب المعروفة .. هى فى الجانب الغيبى فيك .. فمن هذا الجانب يأتيك المدد لكل ما يظهر وما يتجلى فى أفعالك .. وفيه تفسير الكتاب الجامع الذى اسمه « الإنسان » .

الإنسان يتضمن غيباً خافياً اسمه « النفس » .

ونفسك كانت موجودة قبل أن تتلبس بجسدك وقد استدعاها الله من ظهور أجداد أجدادك قبل أن يظهر لك أب وأم وقبل أن تأتى إلى رحم أمك من خلية ملقحة .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

لقد نطقت نفسك ساعتها بدون لسان وشهدت على نفسها بدون جسد وعرفت ربها بدون مخ ..

وهذا هو أنت ..

ومعنى ذلك . أنه كان لك حضور غيبى وكانت لك شخصية غيبية كما أن لك شخصية مشهودة هى التى نراها الآن ..

ولا عجب فى ذلك، فأنت فى الأحلام ترى بدون عينين ، وتتكلم بدون لسان ، وتسمع بدون أذن ، وتمشى بدون أرجل ، وأنت فى الأحلام تسافر إلى بلاد لم تطأها بقدمك ولم ترها بعينيك، فيخيل إليك أنك تعرفها من أمد بعيد .

وفى الأحلام تتحدث إليك الشياطين والملائكة .. وفى رؤى الأنبياء يكلم ربنا أنبياءه .. وفى رؤى الناس العاديين تتحدث إليهم نفوسهم الأمارة بما تشتهى .. فكل الأحلام أحاديث .. كل نفس تتحدث على مستواها .. ولهذا سماها ربنا فى القرآن « الأحاديث»، يقول ربنا ليوسف الصديق : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ .. (٦) ﴾ [يوسف]

فسمى جميع الأحلام أحاديث .

والنفس طرف مشترك فى كل تلك الأحاديث . وهى تتحدث بدون لسان وترى بدون عين وتسمع بدون أذن .

وهى تسافر بدون مواصلات وتطير بدون أجنحة ، فترى الأم ابنها فى أمريكا مريضاً طريح الفراش .. دون أى مقدمات لهذا الخبر .. وذلك أيضاً علم بدون معلم ورؤية لغيب محجوب ..

فيلزم من كل هذا أن نقول : إن الإنسان وجود غيبى وليس مجرد وجود مشهود وإن له نفساً تستطيع أن ترى وتسمع وتتنقل بذاتها .. وذلك هو اللغز الذى اسمه « النفس » . أما الروح التى هى نفخة الله فى الطين لتقوم تلك النفس من العدم، فذلك غيب آخر.. والإنسان كل هذا .

ومجىء النفس بأخلاق معينة وشخصية معينة بخيرها وشرها يدل على ثبوتية اختيار لتلك النفس فى حال عدمها .. حينما كانت مجرد أحد الممكنات .. وذلك غيب ثالث أشد غموضاً وأكثر إلغازاً .

ولذلك يحاسب الله النفس على إجرامها وشرها لأنه لم يخلقها مجرمة ولم يجعلها شريرة ، هى قد اختارت الشر وأضمرت الإجرام منذ الأزل .. وقبل أن يعطيها الجسد لتفعل ولا تفعل .

يقول ابن عربى : « إن التشخص أزلى » وإن النفس كان لها ثبوتية وصف وثبوتية اختيار منذ الأزل حينما كانت مجرد « أحد الممكنات » .

هناك إذن ثلاثة مستويات من الوجود .. مستوى عالم الإمكان قبل الخلق ، ثم الاستدعاء الربانى للوجود .. ثم ملابسة الجسد الذى نعرفه بمواصفاته ، ثم النفخة التى جعلت منك ما أنت عليه .

ولا نعرف من هذه المستويات إلا المستوى الجسدى .. وحتى هذا لا نعلم عنه إلا القليل .. أما النفس وحالها فى عالم الإمكان .. والنفس حينما استدعاها ربها وألبسها حلية الجسد .. ثم النفخة الرحمانية وأسرارها .. فكل هذا غيب مطلسم بالنسبة لنا ..

وذلك حظنا القليل التافه من المعرفة لأقرب شىء إلينا .. الإنسان ..

وهذه نفسك ..

فكيف تدَّعى معرفة نفوس الآخرين؟

وكيف تدَّعى الإحاطة بالكون ؟

وكيف يأخذك الغرور بعلمك، فتنسى ربك الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ؟

فهلا سجدت لله حياء واستغفرت ..

الله

لا يكتمل إيمان المرء حتى يدرك أن كل ما يحدث له من خير وشر هو شفرة يقول بها الله شيئاً ، وهمسة يهمس بها فى أذنه .

وإن يكن الميكروب هو الذى يُمرض فى الظاهر، فإن الله هو الذى أرسل الميكروب وكلفه بما فعل فى الحقيقة ، فلا شىء يحدث فى الكون خلسة من وراء خالق الكون .. وطفيل الملاريا فى فم البعوضة جاء مكلفاً .. والسقف الذى انهار على السكان فعل ذلك بميقات معلوم وكان من الممكن أن ينهار والبيت خال من سكانه ولكنه فعلها وهم نيام، فقتلهم فى ميقات معلوم ولم يقتل الرضيع فى حضن أمه لحكمة مراده .. واللبيب هو مَنْ يفهم الإشارة ويلتقط العبارة .

الكون

هذه الثلاثية كان لابد منها ..

« الله والإنسان والكون » .. ليكون هناك معنى للدراما الكبرى التى تجرى حولنا والتى نقع فى محورها . فما كان ممكنا أن يخلق الله الإنسان ويعطيه الخلافة على لا شىء. فما دام الإنسان

هو أكرم ما خلق ، وما دام قد أعطاه علم الأسماء كلها (أى علم كل شىء) وسخر له الملائكة والجن والشياطين والشمس والقمر والنجوم ، فكان لا بد أن تكون هناك مملكة لهذا الملك .. أرض يسكنها وكون يمرح فيه بعقله وبيئة يسخرها ويستغلها بعقله .. وممالك نبات وحيوان يسود عليها ويعيش على ثمراتها وطيباتها..

وطبيعى أن يكون هذا الملك العظيم هو محل الامتحان والابتلاء.. على هذا الإنعام .. ومن قبل ذلك كان التدريب الأول فى روضة الأطفال حينما أنزله ربه فى جنة وارفة وقال له :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] .. كان هذا هو الدرس الأول فى الطاعة والمعصية ، وكان الله يعلم أن آدم اختار الحرية والتمرد.. وأنه سوف يأكل وسوف يطيع شيطانه .. وكان ضمن الدرس أن يتحمل المسئولية ويدفع الثمن، فيطرد من جنته ومعه حواء إلى أرض الابتلاء .

كان ذلك الدرس الأول رحمة وتنبيها إلى عواقب النسيان والغفلة والخضوع للهوى ،وقد أراد به وبنسله أن يذكروا هذا الدرس .. لأن الخطأ سوف يتكرر والعقاب سوف يتكرر فى مسلسل التاريخ كله منذ بدأ أول مرة ربما من مليون سنة أو أكثر إلى ما شاء الله من دهور وأجيال ربما نحن الآن فى آخرها .

لنشهد ألواناً جهنمية من الشرور والمذابح والمحارق والحروب والمقابر الجماعية لألوف يقتلون وذنبهم الوحيد أنهم يقولون ربنا الله . ونشهد فى الجانب الآخر ارتقاء مذهلاً لذلك الإنسان بمواهبه وقدراته ليقتحم الفضاء ، ويمشى على القمر ، ويفلق الذرة ، ويطير فى صواريخ ، ويغوص فى غواصات ويبنى المطارات

الأرضية والمحطات المدارية المعلقة فى السماء .. والمدن المستقبلية السابحة فى الفضاء ..

والامتحان مستمر بل هو الآن أصعب وأشق وأخطر مما كان أيام الأكل من الشجرة فى روضة الأطفال .. والنتائج النهائية تقترب بقيامة شاملة يطوى فيها ربنا السماوات كطى السجل للكتاب .. وتكون الأرضون كلها فى قبضته ..

كان لابد إذن من تلك الثلاثية .. الله والإنسان والكون .. ليتم الامتحان ثم ليصنف الناس وفق منازلهم ودرجاتهم فى عالم بلا موت نعيماً بلا نهاية .. أو شقاء بلا نهاية .

وما أحسب أن هناك فلسفة أو مذهباً أو نظرية استطاعت أن تقدم رؤية متكاملة ومعنى لحياتنا بمثل تلك الرؤية الدينية

وبدون الدين وبدون الله .. لا معنى لأى شىء ..

أما العلم، فإنه لايرى أبعد من حواسه وأدوات استشعاره ، ولا يستطيع أن يفهم لأبعد من حساباته .. وبالنسبة للعلم المادى.. الله فكرة غير مطروحة . لأن العلم المادى لا يملك ميزاناً أو مسطرة أو برجلاً أو منظاراً يستطيع أن يرى به الله جهرة أو يعرف وزنه أو مقداره .. فهو إذن غير مطروح بالنسبة للعلم ولا لفلاسفة ما وراء الطبيعة فى شطحات من الظن والتخمين وتصورات لا تتفق بقدر ما تختلف ويكذب الواحد منها الآخر ولا تصل إلى شىء ..

وإنسان العصر الذى يعيش فى دول أوروبا وأمريكا بدون إله.. يعيش حياة رخاء ووفرة ولذة وقوة .. لكنها حياة أقرب إلى الانتحار .. ذلك لأن الخواء يملؤها .. واللامعنى فى صميمها .

ولو سألونى .. لماذا آمنت .. نريد منك جواباً فى كلمات .. لقلت فى يقين وبلا تردد : لأنه بدون الله .. لا معنى لى ولا لأى شىء .

الغرور

أحياناً أشعر بأن الغرور فضيلة ..

وأحياناً أسأل نفسى .

ما هى الغريزة التى دفعت فنانى الموضة إلى ابتكار ألوان لامعة متألقة مشعة .. مثل الساتان واللاميه وموضات مثل القبعة العالية.. والياقة العالية .. والذيل المنفوش .. وغطاء الرأس ذى الريشة .. والشعر المستعار ..

ما هى الرغبة المستترة التى كانت فى ذهن خوفو حينما طلب أن تكون له مقبرة أضخم من كل المقابر فى الدنيا .. مقبرة سامقة تخرق السماء ولا يقوى عاد من عوادى الزمان على هدمها .. ما هى الغريزة الخفية التى رفعت الهرم على أضلاعه الأربعة .. وأقعدته ثلاثة آلاف سنة يخرج لسانه للنجوم .. ما هى الدوافع الخفية التى خلقت لنا انتيكخانة مليئة بالتحف والتماثيل ..

ولماذا كان تمثال رمسيس الذى نراه كل يوم بميدان باب الحديد بهذا الطول الشامخ .. ولماذا كان تابوت توت عنخ آمون من الذهب

وصحافه من الذهب وجدران غرفاته من الذهب ..

ولماذا يتخذ السوفيت نجماً مثل جاجارين أو تيتوف .. ليضعوه على رأس الإعلان اليومى عن انتصارات الفضاء .. وكلما انطلق صاروخ دقت وراءه الطبول وانطلقت أحاديث صحفية وصور وبرقيات .. ووقف خروشوف يقول : عندى قنبلة قوتها مائة مليون طن ديناميت تمحو أوروبا فى لحظة .. ووقف أيزنهاور يقول : ها .. ها .. نحن نتجسس عليكم من سنوات وأنتم لا تعلمون ..

وما الذى جعل ناطحة السحاب ترتفع مائة طابق فى السماء .. وأرض الله واسعة ويمكن بناء مائة فيلا وفيلا فوقها ..

لا يمكن أن تكون الضرورة الفنية وحدها هى التى قررت هذه الرغبة فى الشموخ .. لا أصدق ..

إن الرغبة فى الشموخ ذاتها أكثر أصالة من هذا الإلهام المعمارى . إن الإنسان طاووس مزهو .. فيه غرور .. غرور خلاق بناء ومخرب مدمر فى الوقت نفسه ..

وهو فى محاولته تحقيق هذا الغرور وتأكيده يتحايل فى البحث عن تبرير ومنطق وحجة معقولة يتوسل بها إلى أغراضه .. وهو حينما يجد هذه الحجة يكون فناناً .. ومخترعاً .. وفرعوناً .. وصاحب دين ورسالة .. وعلماً من أعلام الإنسانية .. وحينما لا يجده .. لا يجد مفراً من أن يكون سفاحاً يقتل ويذبح ويسرق ولا يجد حجة يبرر بها جرائمه أمام ضحاياه .. وتنتهى به لا معقولية غروره إلى السجن والمشنقة .

الإنسان غرور يبحث عن معقولية . إنه نسر محلق .. وصقر متعال يبحث عن قمة يقف عليها .. وأرض يستوى عليها ..

ويستوى عليها جبروته وعزته وغروره ..

والقمم الوحيدة الممكنة التى يستطيع هذا النسر أن يتربع عليها هى قمم من الأهداف المجردة .. ومثل الخير والحق والجمال .. والعدالة .. وكلها معقولات ، كلها فى حاجة إلى عمارات من المنطق والحجج والبراهين .

وهو إذا استطاع أن يقيم هذه العمارات، فإنه يستطيع أن يغطى غروره ويخفى رغبته الأصيلة فى الطموح والتفوق بقناع جميل بهيج من الخير والجمال والحق وهو بهذا يفيد ويستفيد .. ويريح ويستريح من هذه الحكة الأبدية التى تأكل قلبه

وهو إذا لم يستطع .. يتحول إلى صقر مجنون .. ونسر بهلوان.. لا يجد قمة يقف عليها سوى نفسه .. فيقف على رأسه بالمقلوب .. رجلاه فوق .. ورأسه تحت .. وهو منظر مضحك لا يقنع أحداً .. ونهايته مستشفى المجاذيب .

لماذا تصر زوجتى على أن يكون أثاث بيتها أحسن أثاث وشقتها أعظم شقة وزوجها أعظم زوج .. إن هذا الغرور يغيظنى.. وعلى إيه ده كله ؟!

ولكنى اكتشفت .. أنى أيضاً .. وأحياناً .. أتمنى أن تكون زوجتى أحسن زوجة وبيتى أحسن بيت والكلمات التى أكتبها أجمل كلمات .

إن زوجتى بفطرتها لم تعبر عن عاطفة غريبة عنها وعنى ..

إنه الفرعون القديم .. يطلب أن تبنى له أهرام أخرى .. من مليون صفحة .. ومن ألف طابق .. ومن مائة لقب ولقب .. ولا شبع أبداً .. الكرباج الذى ينزل على ظهرها .. ينزل على ظهرى أيضاً .. كل ما هنالك أنها قد جسدته أكثر وأكثر لعينى ..

وهكذا الإنسان دائماً .. رغبته فى التفوق لا تشبع .

وهذه لذته ..

لا أصدق أن العباقرة يضحون بشىء ولا أن العظماء المصلحين يفتدون بدمهم أحداً .

إن هذه لذتهم .. لذتهم المجد والتفوق ..

ولو أنهم أعطوا الحرية والأمان وخزائن الذهب وكممت أفواههم لكان هذا هو عذابهم الأكبر .. واستشهادهم الحقيقى .

إنهم نسور حقيقيون لا يطلبون إلا الأعالى ولو كان طريق هذه الأعالى هو الشوك والدم والعرق ، فإن هذه الأشواك هى السكر المعقود فى أفواههم .

وما هو التاريخ .. ؟

إنه أكداس من الغرور .. والكلمات الطنانة .

إنه الكتاب الأبدى الذى يكتبه دائماً المتحيزون .. أصحاب المصلحة .. أما الآخرون، فإنهم يموتون وتموت آراؤهم معهم .

الإنسان ذلك الطاووس .

إن كل فضائله لا تستطيع أن تخفى غروره عنى لأنى أرى هذا الغرور .. وأكثر .. أنا أحسه .. إنه حكة فى بدنى .. لا عزاء لى من لعنتها الأبدية .. إلا أن أخلق بها شيئاً جميلاً .

أحاول أن أجملها فى عينى .. وفى عين الناس بالبحث عن عذر جميل لبقائها .

الأدب ..

الفن ..

الموسيقى ..

الشعر ..

إنها سيمفونية الألوهية والعظمة والمجد والشموخ التى يعزفها الإنسان لنفسه وللناس وينام على أفيونها كل ليلة .

إن هذا البروميثيوس المصلوب على غرائزه .. تنقر غربان المجد كبده .. لا يستطيع أن ينام إلا على هذه الأنغام الإلهية .. فحينما تصدر عنه هذه الأنغام يستريح .. ويشفى كبده الجريح ويلتئم .. ولكن كبده ما تلبث أن تعود، فتتآكل من جديد حينما يفيق ويجد نفسه عبداً ذليلاً نحيلاً يرتجف .. يهزمه الموت والمرض والشيخوخة .

إن كبده يعود فيدمى .. يدميه الذل والمهانة .. والضعة .. فيصرخ ويبكى ويجن .. ويعود يتغنى بترانيم الآيات السماوية .. والأنغام العلوية .. ليلتمس الراحة وينام من جديد .

والإنسان ليس مخيراً فى هذا الغرور .. إنه محكوم عليه بغروره، إنها ضرورة بقائه تحتم عليه أن يدافع عن هذا البقاء بأن يوظفه فى شىء ويتفوق به على نفسه .

إن رجليه تلحان عليه بأن يمشى ويجرى ويرقص .. وعيناه تلحان عليه بأن يدقق ويحملق ويتفحص . وأنفه تلح عليه بأن يتشمم .. وعقله يسوقه رغماً عنه ليتفكر .

إن وجوده ليس وجوداً معلقاً فى الهواء .. ولكنه حركة واندفاع تلقائى لعدة وظائف .. ولا مفر له من طاعة هذه الوظائف وتحقيقها ..

إنه لا يستطيع أن تكون له ساقان ويقف مشلولا .

وهو إذا رفض أن يوظف ساقيه وذراعيه وعقله وقلبه .. وجلس مكانه متكاملاً متثائباً ما يلبث أن يعاقب بالملل .. الملل الفظيع الخانق الذى يظل يخنقه ويجثم على أنفاسه حتى يدفع به

إلى الإحساس التام بعدم الفائدة .. وعدم النفع .. وعدم الجدوى .. ثم إلى الانتحار .

وهكذا يحكم على نفسه بالموت .. لأنه رفض أن يريد الحياة .

الإنسان تحكمه ضرورة نموه.. ضرورة تدفعه دائماً إلى فوق.. مثل الضرورة التى تدفع عصارة النبات من الأرض إلى فوق ..

ولا يوجد طريق عكسى .

وراءنا لا يوجد شىء .. وكل مَنْ يتقهقر يقع فى هذا اللاشىء ويموت .

الحياة صمام يدفع إلى اتجاه واحد .. النمو والارتفاع .. والعلو.. والتفوق والتسلق .

والعاطفة التى تحرس هذه الدوافع ، هى الغرور .. والطموح وعشق المجد .. وما نسميه أحياناً بالكرامة والعزة والكبرياء .. والشرف . إنها المسلح الذى يحول دون سقوط هذا البنيان من الورق .

غرورنا ينفخ فينا فنطير مثل طيارات الورق إلى فوق .

كلنا أطباق طائرة .. تتفاوت مجالاتنا بحسب ما فينا من وقود وغرور .

وهذا المقال نفسه غرور .

وهذه الثقة التى أكتب بها غرور .

وإن كان اعترافى بهذا الغرور يداوينى بعض الشىء من الغرور الكاذب .. ويحفظ لى كفايتى من الغرور النافع .

هل أنت مغرور ..؟!

أنصحك بقراءة الفصل من الأول ..

القنبلة الخضراء

كيف بدأت القنبلة الخضراء على الأرض؟!

لا أحد يعرف.

العلم حائر فى بداية الحياة .. وحائر فى نهايتها..

وحينما يفكر العلماء ويجهدون تفكيرهم ليجيبوا عن السؤال الخالد : من أين.. وإلى أين.. فإنهم غالباً ما ينتهون إلى لا شىء.. وأحياناً يغرقون فيما يشبه الشعوذة..

مثلا مفكر مثل فان هيلمونت وهو من علماء القرن السادس عشر يكتب قائلا :

إذا حفرت حفرة فى قالب من الطوب ووضعت بداخلها قليلا من الريحان المسحوق ثم غطيت القالب بقالب آخر.. وعرضت الاثنين للشمس.. فى نهاية بضعة أيام يتخمر الريحان ويتحول العشب إلى عقارب حقيقية..

نكتة مثل نكت أبو لمعة.

وليس فان هيلمونت أبو لمعة الوحيد.. بل هناك مفكر عظيم كبير مثل أرسطو يقول هو الآخر : إن الفئران تتولد من الطين الدافىء.

والذنب ذنب المشكلة وليس ذنب أرسطو.

إن الحياة مشكلة عويصة تخبل العقل.. مشكلة أكبر من أرسطو وأكبر من عقله..

وأنا فى الحقيقة لا أهتم كثيراً بنشأة الحياة وكيف بدأت..

وإنما المخاطرة التى تشوقنى وتخبل عقلى.. هى قصة الحياة بعد نشأتها.. خط سيرها وتطورها.. وانتقالها من نوع إلى نوع وتسلقها البر والبحر والهواء.. واندلاعها مثل شعلة نار أمسكت بمخزن من البارود.. فانفجرت فى كل اتجاه..

هذه هى المخاطرة الكبرى..

والرجل العادى ينظر إلى الحياة على أنها شىء متكامل.

إنه يندهش بسذاجة لكمال النملة.. ويعتبر الفراشة كمالا ليس بعده كمال.

ولكن حقيقة الحياة وحقيقة سرها.. أنها غير كاملة. وأنها ناقصة وضعيفة ومعطوبة ومريضة.. وهى لهذا تتطور وتخرج باحثة عن كمالها، تخرج فى مخاطرة مجهولة المصير كل يوم منذ ملايين الملايين من السنين.. لتصارع الجوع والموت وتتبع المحاولة بالمحاولة والتجربة بالتجربة لتحسين أصنافها وتعديل أنواعها بأنواع أحسن تتحمل الحر والبرد والمرض.

الحياة سلسلة تجارب.. وتخبط، وتورط، وتقلب بين النجاح والفشل.. وبين الخطأ والصواب على مدى الزمن الطويل الخرافى.

كانت مشكلة الحياة فى بدايتها .. هى كيف تحصل على الغذاء والطاقة؟

والحياة فرن لا تهدأ فيه التفاعلات إلا بالموت.. وهى لهذا فى حاجة إلى وقود وحرارة على الدوام..

من أين الوقود ؟

كانت أول تجربة للمخلوقات أن تحصل على حرارتها من تخمير حساء المستنقعات الذى تعيش فيه.

وظلت الحياة ملايين الملايين من السنين تعيش من الحرارة التافهة البسيطة التى تنطلق من تخمر هذا الحساء حتى بدأ الحساء ينفد .. وبدأت تحدث مجاعة..

وبدأت الحياة تلفظ أنفاسها . وانطلقت الخلايا القليلة الباقية تجرب حظها وتبحث عن الطاقة بتفاعلات كيماوية جديدة..

وبعد مليون مليون سنة من الأخطاء والتجارب اكتشفت الخلايا الخضراء وقوداً أقوى من الوقود الذرى.. هو مادة الكلوروفيل..

ومادة الكلوروفيل هى المادة الخضراء الغريبة التى اخترعتها النباتات بهدى من خالقها وهى مادة تقتنص حرارة الشمس وأشعتها وتثبتها مع غازات الهواء والماء وتصنع منها مخزوناً من السكر تتغذى عليه خلايا النبات كلما جاعت..

وتقدر كمية الطاقة التى يخزنها النبات سنوياً بهذه الطريقة عشرة مليون مليون مليون (جرام كالورى) .. أى بما قيمته مائة مليون قنبلة ذرية..

هذا الاكتشاف حدث قبل مجىء الإنسان إلى الدنيا .. اكتشفته النباتات فى مخاطراتها اليومية للبحث عن غذاء وبهداية خالقها من

ملايين الملايين من السنين ماتت فيها أجيال لا عد لها من النباتات من الجوع والبرد..

ولكن الحياة لم تكتف بهذا .. ولم تقنع ، إنها نهمة طموحة شرهة.

إن خزن السكر وحرقه بهذه الطريقة النباتية لا يؤدى إلى حرارة كافية.. والحياة تتلهف إلى نار أكثر.. وأكثر.

وهكذا عادت الحياة تبحث وتجرب .

وبعد ملايين أخرى من السنين اكتشفت بعض الميكروبات طريقة أخرى لحرق السكر بأكسجين الهواء مباشرة.

ومن هذه الميكروبات ظهرت سلالة جديدة هى الحيوانات التى تحصل على حرارتها بالتنفس، واستنشاق الأكسجين من الجو مباشرة وحرقه فى الكبد.

وفرحت الحيوانات بهذه القنبلة الأكسجينية لأنها أعطتها حرارة أكثر.. ومكنتها من نشاط أكثر.. فأصبح فى إمكانها أن تتحرك وتقفز وتسبح وتطير.. ولم تعد مضطرة إلى قضاء حياتها واقفة فى مكانها مثل النباتات.

ولكن الحياة .. شرهة نهمة، طموحة، لا يكفيها شىء.. وهى مازالت تتطلع إلى أكثر..

وظهر الإنسان.. وبعد ألوف قليلة من السنين اكتشف الإنسان النار والفحم والبخار والكهرباء.

ثم اكتشف القنبلة الهيدروجينية.

ولكن الحياة شرهة نهمة، طموحة، تريد مزيداً من الطاقة لتنطلق فى الفضاء.

والتجارب مازالت مستمرة.. والحياة النهمة تجرب، وتصيب، وتخطىء.. ويهلك منها الألوف فى التجارب تعوضها بالملايين كلما كشفت سراً جديداً.

وهذه هى القصة التى تملؤنى بالدهشة والعجب والنشوة.. هذه المخاطرة الآلية الأبدية.. جرياً وراء التفوق.

وهى مخاطرة تكشف لى عن روح الحياة الخفية، تكشف لى أن الحياة قلقة متفجرة بطبعها، تكره الاستقرار والاستمرار على وتيرة واحدة. وتكره الرضا والقناعة والقبول والاستسلام.. وإنها شبقة شهوانية يتآكلها الطموح والقلق الحافز والمخاطرة بسبب وبدون سبب لاقتحام المجهول وكسب أراض جديدة.. مغرمة بالتغيير والتبديل والتصنيف وتخريج موديلات جديدة كل يوم.. وكل لحظة.

وهذا هو السر العميق لقلقى وقلقك.. وقلق ذلك الرجل الذى تقابله فى منعطف الطريق.. وتشاهده يحملق فيك وأجفانه تختلج فى عصبية.

إننا جميعا نعبر بقلقنا عن هذا الجوهر العميق.. نعبر عن هذا الفوران البركانى الذى يضطرم فى داخلنا والذى يستكن فيه سر الحياة الأعظم.

نعبر عن تلك القنبلة الخضراء التى تعشش فى قلوبنا.. وتتفجر كل لحظة عن رغبة.. أو أمل أو اندفاع أو شهوة فى المزيد من النمو أو الانطلاق إلى المجهول.

حتى النبات الساكن المشلول.. قد انفجرت فيه هذه القنبلة

الخضـراء يوما مـا.. وأمدته بالحياة التى سرق بهـا نور الشمس ليشربه ويتغذى عليه.

إن الجوع فينا ليس مرضاً ولكنه طبـيعة .. والقلق ليس مرضاً. وكذلك الجوع فى لحـاء الشجـر.. وفى عيـدان الذرة الخضـراء. والقلق فى خلايا الورود. وفى دم العصافير المغردة.

هذه الزوابع النفسـية التى تهب علينا من داخلنا.. هى من روح الله فينا.

والإنسـان القلق ليس إنسـاناً مـريضـاً . وإنما المريض هو ذلك الإنسان الآخر الهادىء، الكسول، القنوع، المستقر، المسترخى..

– إن الحياة تنظر إليه وكأنه ليس منها.. ربما كان ابنها.. ولكنه ليس ابناً شرعياً . لأنه لايحمل حقيقتها وجوهرها.

وإنما أولاد الحيـاة البكر الحلال هم الـذين ينتفضـون كل يوم وراء مخاطرة كبرى يقتحمون بها المستقبل.

المنـاخ.. والحـب!

إن نظرة عامة على الساحة العاطفية اليوم ترينا أن هناك حـالـة «فك ارتبـاط» شـاملة ومتكررة فى علاقات الحب العصرى، وترينا أن ظاهرة الوفاء أصبحت أقصوصـة خرافية ورواية غريبة تروى وكأنهـا عن أهل المريخ، وتكاد الواحدة تقول للأخـرى.. مَن تحبين هذا المساء ؟ ولا مانع من أن تتشنج الفتاة ويغمى عليها بكاء وحبا فى كل مرة..

وتبلغ هذه الحـمى أشـدها فى المدن والسواحل وكـافـيتـريات الجامـعة.. ثم نراها تنحسر كلمـا نزلنا إلى الأرياف، أو توغلنا فى الصـعيـد الجوانـى، أو رحلنا مع البدو.. ونرى أنـفسنا نعـود مع البداوة إلى الأصـالة والوفاء وثبات العـاطفة.. ونسمع عن عـشاق أقـاموا على حـبـهم حتـى الموت.. ونرى الوفاء يعـود فـيكون هو القـاعـدة، ونرى نـفس هذا الوفـاء فى الريف الفـرنسى والريف الإنجليزى والريف الألمانى، كما نراه فى جبل الدروز وجبل لبنان..

فإذا نزلنا إلى باريس ولندن وبيروت عدنا إلى نماذج التهتك التى نراها فى القاهرة، وروما ومونت كارلو.. ورأينا الحجاب يسقط كما يسقط الحياء..

ويبدو أن للمناخ العام أثراً فى تشجيع صفات معينة فى النفس وإجهاض صفات أخرى.. ففى الريف المناخ العام هو مناخ وفاء.. يلقى الفلاح البذرة فى الأرض، فلا يخونه المطر ولايخونه النيل، ولاتخونه الشمس، وإنما يجد الوفاء بالوعد هو القاعدة عند الجميع.. وإذا اجتهد فى الحرث والرى أعطت الأرض ثمارها فى الميعاد دون غدر.. ثم إن كل شئ يسير ببطء وهوادة دون هرولة ودون انفعالات ودون مفاجآت.. وتتجاور العائلات، وتتزامل وتتصاحب، وتتقاسم الخير والشر حتى الموت.. فلا عجب إن أثمر هذا المناخ وفاء عند الناس الذين يعيشون فيه، ويختلف الأمر تماماً فى مدينة على الساحل يحج إليها السياح كل يوم، وتلقى البواخر بأطنان من النساء والرجال من هواة المتعة، وطلاب التغيير على الشاطىء بين ساعة، وأخرى.. والكل يتسابق إلى الدفع فى سبيل اصطياد لذة جديدة.

كما يختلف الأمر فى كافيتريا بالجامعة تتداول عليها طوابير طوافة من المراهقين والمراهقات، وتطن فيها الغرائز والشهوات طنين النحل فى خلية.. وتلتهب الأنظار والأسماع بما ترى وتسمع.

ثم حياة المدن.. التى لم يعد فيها الإنسان ينتظر من السماء شيئا.. وإنما أخذ زمام الأمر فى يده، وبدأ يدير كل شئ بالأزرار والرادار والأقمار الصناعية، فخيل إليه أنه لا سماء هناك ولا رب ولا مهيمن سواه.. فألقى بالأوامر والشرائع، والأعراف، والتقاليد

وراء ظهره، كما يلقى بتركة بالية وانطلق يعيش على هواه.. ولم يعد الواحد منهم يرى غير نفسه وغير ما يشتهى، وغير ما تأتى به اللحظة من حظوظ وملذات..

وتلك هى الحياة المادية الصرفة.

وحينما يعيش الإنسان حياة مادية صرفة.. فإنه ينفصم تماماً إلى لحظات .. وحالات.. ونزوات.. لا رباط بينها.. إلا استهداف اللذة.. والشهوات بطبيعتها سريعة الملل، سريعة الضجر، طلابة للتجديد والتغيير لتظل على اشتعالها.

ومن هنا تأتى هذه الحالة العامة من «فك الارتباط» المتكرر والعلاقات الطيارة.. ونرى الساحة وقد انقلبت إلى جبلاية قرود، تتلاقح وتتسافد فيها الإناث والذكور بلا قاعدة سوى لقاء المصادفة.

والغريب أن النفس فى هذه الحياة لا تزداد شبعاً ، بل تزداد جوعاً ولا تزداد امتلاء، بل تزداد خواء.. ثم هى تنتهى إلى حالة من الظلمة الحيوانية، والقسوة، والبلادة.. ثم تنتهى آخر الأمر بفساد الفطرة إلى اليأس والجنون وطلب الانتحار.

ولهذا نجد أعلى نسبة للجنون والانتحار فى بلاد الترف والتحلل، والإشباع الغريزى مثل : روسيا وأمريكا ، والسويد، والنرويج.. ولا نجدها بين الذين يعيشون حياة الريف أو حياة البداوة أو حياة الجبل.. كما لا نجدها إطلاقاً بين أهل الإيمان، وأهل الوفاء ، وأهل المثل والقيم .

ويظل هؤلاء الماديون على غوايتهم لايفيقون إلا على زلزال، أو طوفان أو بركان أو وباء مهلك، تعجز أمامه حيلهم ومعارفهم،

فيتوقف الواحد منهم وقد شل عقله تماماً وهو يرى قوة أخرى غير قوته ، وإرادة أخرى غير إرادته تعمل فى الكون.

فإذا مضت الحادثة، وانصرف آخر عامل إنقاذ، عاد المسرفون منهم إلى عتوهم. ورأيناهم يفسرون ما حدث بالعبث والقوى العبثية والعشوائية، والمصادفات العمياء، وازدادوا بذلك عمى على عماهم، وفاتتهم العبرة، ونسوا التاريخ، ولم يفقهوا أن ما حدث كان صيحة إنذار، ونفخة أولى فى الصور.. ليصحو مَنْ يصحو ويفيق من يفيق.. قبل أن تأتى نفخة الصور الثانية فتكون الطامة.

وتلك كانت قصة عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط.

وتلك كانت سنة الله فى الأرض.

ولن تجد لسنة الله تبديلا، وإنما الحب وروايات أهل الحب مثال من ألف مثال.

والفطن اللبيب مَنْ يعرف كيف يقرأ التاريخ، وكيف يحل رموز حجر رشيد، ويفقه الحكمة الخافية والعبرة المستترة وراء الحوادث اليومية التى تبدو من السطح، وكأنها تداعى المصادفات.

مَنْ هو بوذا؟

جوتاما بوذا.. المعلم والحكيم والفيلسوف الذى ظهر فى سيلان منذ أكثر من ألفى عام ليهدى الناس إلى سبل السعادة ويدلهم على طريق الخير تحول الآن إلى أسطورة ولغز.

ولو سألت الآن أحد اليابانيين : ما هو بوذا، لوجدت أجوبة بعدد مَنْ تسألهم.. فالبوذا هو أنا.. والبوذا هو أنت.. والبوذا هو الوردة.. والبوذا هو هذه العصا.. والبوذا هو الحقيقة، والبوذا هو السر.. والبوذا هو شيئية أى شىء، والبوذا هو جوهرك.. والبوذا هو العدم.. والبوذا هو الدائرة الفارغة.. والبوذا هو الصفر.. والبوذا هو الذى لا تعبر عنه الكلمة، والبوذا هو الذى ليس كمثله شىء.. أسطورة ولغز..

ويقولون لك ادخل فى « الزن » ZEN وأنت تعرف، فإذا سألتهم : وما هو الدخول فى «الزن»؟ قالوا : فقط اجلس جلسة تأمل هادئة، واغلق عينيك ، واسكت صوت خواطرك ورغباتك ثم

تخطى نفسك واسمك وعلمك وحظك وجاهك وكل متعلقات هذه النفس وأطماعها.. ثم تجاوز هذا كله، فتصل إلى الراحة وإلى السكون المطلق وإلى الفراغ والصفر، فذلك هو البوذا، وذلك هو حقيقة كل شىء، فأنت الآن تلامس جوهر الوجود وأنت تلامس حقيقة جميع الموجودات، فتلك حقيقة الوردة والثمرة والميكروب والعصا والكلب والشجرة والنجم وشكسبير.. وأنت الآن قد أصبحت ذلك الفراغ الملىء، فأنت الآن كل هؤلاء.. وهم جميعا أنت.. أنت الصفر واللانهاية .. وأنت الآن أدركت وعرفت فالزم، فلا بوذا هناك وإنما نفسك فى إطلاقها وتجردها وشمولها محيطة متحدة متوحدة مع كل الكل.

ولهذا يقول للبوذا حتى تنتزع شوكة نفسك، فإذا انتزعتها فقد انتزعت البوذا معها.

ويقول لك العارف :

قبل الدخول فى «الزن» تبدو لك الوردة وردة، والعصا، عصا، فإذا دخلت فى «الزن» لاتعود الوردة ، وردة ، ولا العصا ، عصا . فإذا خرجت من «الزن» عادت الوردة ، وردة . وعادت العصا، عصا.. ولكن بمعنى جديد كل الجدة.

وحالة الصفر ، أو حالة «الفناء» ويسمونها «النرفانا» هى منتهى أمل البوذى.. وهى غاية السعادة والسكون الداخلى الذى لاتزلزله الزلازل ولاتحركه النوازل.

فإذا قلت له : كيف يكون الصفر هو الحقيقة، وكيف يكون الفناء هو الغاية التى يسعى إليها العارف؟! قال لك تخيل الزمن..

تخيل عمرك الذى تعيشه.. إنه ماض انتهى، ومستقبل لم يأت بعد.. وبينهما نقطة افتراضية بين امتدادين.. لكن النقطة أو هذا الصفر الحسابى هو كل الامتلاء الذى نسميه الحاضر أو الواقع الذى نقتتل عليه والذى ما يلبث أن ينصرم ويزول ويصبح شبحا خاويا فى برواز قديم اسمه الماضى.. وكل بكائنا وكل همنا واهتمامنا مشغول بهذا الصفر.. بهذه الدائرة الفارغة.. وإذا أدركنا هذا، فسوف نستريح وينتهى عذابنا وينتهى بكاؤنا وتجف دموعنا.

إذا أدركت أن منتهى الامتلاء هو منتهى الخواء، فأنت البوذى الواصل وقد عرفت فالزم.

ولكى يصدمك ويوقظك من غواشى الحس.. وغرور العقل الذى يحجبك، فإن البوذى العارف يفاجئنا بأمثال هذه الأسئلة المحيرة.

- ما صوت يد واحدة تصفق ؟

- ما شكل وجهك قبل أن تولد ؟

- ما حقيقة البوذا فى كلب ؟

ويقرعك على ظهرك بمقرعة مثلما يقرع الطبيب المولود عند ولادته لكى يأخذ أول شهيق ويدخل الهواء رئتيه، فهكذا يفعل بك لتصحو وتولد من جديد..

فإذا انفجر عقلك من التفكير دون جدوى ودون أن تجد جوابا شافيا عن أسئلته قال لك : ادخل فى «الزن».. تجاوز عقلك ونفسك وحواسك واخرج من هذه المحارة التى تسجنك تصل إلى الحقيقة.. إن كلاما يخرج من شفتين باليتين محدودتين لن يكون إلا هراء،

فالحقيقة لايمكن التعبير عنها بكلام ولا بحروف.. إنها إشراقة واستنارة باطنية تضيء وجودك كله.

وطائفة «الزن» تعود فى أصلها إلى «كاشابا» و«كاشابا» .. هو أحد تلاميذ بوذا.

وتحكى القصة أن جوتاما بوذا وقف ليلقى آخر دروسه على تلاميذه.. ولكنه لم يتكلم وظل صامتاً ثم اكتفى بأن يقدم وردة.. وتساءل التلاميذ عن المعنى الذى قصده بوذا ماعدا كاشابا، فإنه ابتسم .. فقال بوذا : «هو ذا أحدكم استطاع أن يفهم ما لايمكن التعبير عنه بكلام.. وهو ذا يقوم من بعدى فيعلمكم».

وهكذا بدأت طائفة «الزن» وطريقها الصمت والسكون والتأمل.. وليس لهذه الطريقة كتاب ولا تعاليم ولا تسابيح وتكاد تكون ضد النطق بأنواعه، وتكاد تكون ثورة على ابتذال الحقيقة بالكلمات.

ولكن البوذية الأولى التى جاء بها بوذا منذ أكثر من ألفى عام كانت أبسط من ذلك بكثير.

إن جوتاما بوذا الذى كان الابن المدلل لعائلة أرستقراطية.. والذى ضاقت نفسه بالترف الفارغ. فترك قصر أبويه، ولبس الخرقة وهام فى الغابات بحثا عن الحقيقة.. قد ظل يسعى فى الأرض وقد طوى بطنه على الجوع.

وتحت شجرة وقد بلغ منه الصيام كل مبلغ، أشرقت عليه الحقيقة، وأدرك أن طريق السعادة الحق هو فى قمع النفس، وكبح رغائبها.. فإذا سكتت الرغبة وخرست الشهوة وانتهى الطلب،

سكت اللهاث المجنون، وانتهى الألم، وانفتحت فى القلب أبواب الحكمة.

النفس الراغبة الشهوانية هى الحجاب، وهى سبب التعاسة والألم، فإذا تجاوزتها وتخطيتها تحررت وبلغت غاية الراحة والسعادة.

تلك كانت تعاليم بوذا.. وذلك كان طريق الفضيلة بالنسبة إليه.

ولم يبلغنا فى الآثار الباقية عن بوذا أنه تكلم عن إله أو آخرة أو حساب أو روح أو غيب، ومع ذلك فهو فى أكثر أقواله يتكلم عن «الواحد».

فماذا كان بوذا يعنى بالواحد ؟!

بعد أن أنطوت آلاف السنين على تلك الأقوال ودخل عليها كل ما يدخل على الأقوال والسير من تحريف وإضافة وتغيير لا يتبقى لنا إلا ما يتداوله البوذيون من تراث.

وهم يقولون فى هذا التراث إن بوذا لم يكن يعتقد فى ثنائية خالق ومخلوق.. وإنما أعتقد دائما فى واحدية تقول « إن الخالق هو عين المخلوق، كلاهما واحد».

الله هو الكل، هو مجموع السماوات والأرضين وما عليها وما بينها.

يقول ذلك الواحد فى أبيات غريبة من الشعر :

«إذا ظن القاتل أنه قاتل

وظن القتيل أنه قتيل

فإنهما لايدريان ما خفى من أساليبى

حيث أكون أنا الصدر لـمَنْ يموت.

وحيث أكون أنا الذراع لـمَنْ يقتل

وحيث أكون أنا القاتل والقتيل والسكين

وحيث أكون كل شيء حتى الموت نفسه » .

وتلك هى وحدة الوجود الهندية التى تجعل من الله ومخلوقاته شيئا واحدا.

ولم يكن هذا كل ماجرى على أقوال الحكيم بوذا، بل إن البوذية انقسمت فى اليابان وحدها إلى ثلاث عشرة شعبة.

ولم تكن «الزن» إلا واحدة من تلك الشعب. و«الشنتو».. هى شعبة أخرى و«للشنتو» فى عاصمة اليابان القديمة ألف وخمسمائة معبد من مجموع أربعة آلاف وخمسمائة معبد بوذى.

وطائفة «الشنتو» يؤمنون بالروح، ويقدمون لها القرابين ويطلبون منها العون والهداية.. وللروح كهنة وخدام.

وفى كل معبد كاهن خاص يلجأ إليه المواطنون ليقرأ لهم طالعهم.

ولا نفهم ما هو الروح المقصود، وكيف ومتى خرج هذا الروح من عباءة بوذا.

وطائفة ثالثة.. تؤمن بالآخرة والبعث، وبعالم من الفردوس، ينتهى إليه الناس، كل الناس، بعد أن يتطهروا وتكتمل نفوسهم.. ويؤمنوا برب واحد ، هو «أميدا بودا» .. هو الله النور والحياة.. وهى طائفة حديثة خرجت إلى النور منذ ثمانمائة سنة.

وسبيل النجاة والهداية لكل إنسان فى هذه الطائفة، هو أن

يتوكل على «أميدا بودا» ويطلب منه العون والقوة.

ويقولون إن « أميدا بودا » هو نفسه بوذا بعد أن تخطى مرتبة البشرية ثم عاد فتجاوز مرتبة الكينونة، وأصبح فى الإطلاق والتجريد لا سبيل إلى الوصول إليه.

ولكنه من فرط حبه أرسل رحمته المهداة «بودا ساتفا».. ليكون الواسطة بينه وبين كل المخلوقات ليأخذ بيدها جميعا إلى مراقى الفردوس الأعلى..

يقول مستر «سوجيتا» وهو رجل أعمال يابانى : إن طريقة «الزن» تحتاج إلى وقت ولا أحد يفهمها، ولا تلائم هذا العصر.. ولكن ديانة «الأميدا بودا» يفهمها الكل.

وفى اليابان عشرون مليونا من أتباع «الأميدا بودا» ويسمون مذهبهم طريق الفردوس PURE LAND SECT وطائفة رابعة هى طائفة «سوكا جاكاى».. أو البوذية الجديدة.. وهى طائفة ترفض الغيبيات وترفض التفلسف وترفض الغموض .. ومعابدها عمارات مبنية على أحدث الطرز العصرية وتعمل بالأزرار والإلكترونيات. ودينها التخلق بمكارم الأخلاق.. مجرد مكارم الأخلاق ولاشىء سوى ذلك.

وطوائف أخرى.. وأخرى.

وأفكار بلا عدد..

وطرائق تتشعب إلى الهدف، وإلى نقيضه..

وأسأل نفسى: ترى لو بعث بوذا حياً وذهب إلى اليابان.. يتعرف على البوذا هناك.. وهل يعرف كل منهما الآخر ؟

وهل نتعرف نحن أهل الأديان السماوية على ملامح مشتركة بيننا وبين هؤلاء.

وهل يقف كل الأنبياء على أرض واحدة، برغم تقادم العهد، وكثرة التحريف وانقسام الأديان إلى عشرات الملل والنحل؟

نعم .. برغم كل ما طرأ على الوحى الذى تلقاه الأنبياء من تحريف، ورغم الفتن والانقسامات، فإن الدارس للأديان دراسة مقارنة يشعر بالأرض المشتركة التى يقف عليها كل الأنبياء..

إنهم جميعا اتفقوا على الحض على مكارم الأخلاق ، والأمر بالمعروف، وقمع الشهوات.. وتكاد تكون ألواح الوصايا واحدة فى الجميع.

وكلهم تكلموا عن الواحد.. وإنما اختلفت الروايات عن هذا الواحد بسبب تقادم العهد والتحريف.

وكلهم اتفقوا على أن جهاد النفس هو السبيل الموصل إلى المعرفة والاستنارة، وسكينة القلب.

وكلهم قالوا بالبعث وحياة الآخرة، حتى ديانات الفراعنة والديانات الوثنية.

وكلهم سلكوا بالتصوف على نفس الدرب.. بالصوم.. والصمت.. والخلوة.. والتأمل.. ورياضة النفس على الصبر والحلم وكظم الغيظ وتحمل المكاره والزهد فى الخسائس.

وكلهم كانوا طلاب علم وطلاب حق وطلاب عدالة.

وبرغم ما فعل الزمان بالتواريخ والسير والكتب والأقوال.. فإن الأصابع جميعا كانت تبدو أنها تشير إلى شىء واحد.. إشارة

مرتعشة أحياناً ، وإشارة ثابتة أحياناً.. ولكن دائما إلى نفس الاتجاه.

وكأن الكل يقول هو ..

أحيانا بالإشارة..

وأحياناً بالعبارة..

وأحياناً يختلط الـ « هو » بالـ « أنا » .

وأحيانا يتحد الاثنان فى وجدان صوفى محموم، فيصير النبى فى نظر أتباعه إلها، والمخلوق خالقا.. وتلك خطايا المغالاة التى تؤدى بأصحابها إلى الكفر.

ولكن أهل البصائر سيرون نور البدر، برغم السحب وبرغم غواشى التحريف. وبرغم الاختلاف.

ولهذا جعل الله القرآن كتابا مهيمنا على جميع الكتب لأنه وحده المحفوظ برحمته، فهو وحده المرجع عند الاختلاف وبه تمت الكلمة.

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء]

ألم يقل الله لنبيه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (٧٨) ﴾ [غافر]

فما أكثر الرسل عبر التاريخ مما نعرف ومما لا نعرف ولكن ما أكثر ما تعرضت كلماتهم للتغيير والتحريف .. وصدق الله العظيم.

حب..



إلى الأبد!

ليس أكره عند الله من كهل يعشق، أو غنى يبخل، أو قوى يطغى، لأن الإنسان يبلغ غاية قدراته مع رشد الكهولة، وبسطة الغنى ووفرة القوة.. ولا ينتظر من هذا الذى بلغ أشده أن يقع فى النقصان.. وما يسامح فيه المراهقون والصبيان، لا يسامح فيه الكهول الراشدون، ولهذا يقول القرآن عن الإنسان.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

ويسمى القرآن الصبوة إلى النساء جهلاً ، فيقول النبى يوسف شاكياً حاله إلى ربه حينما تكاثرت عليه نسوة مصر يراودنه.

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

فيقول لربه : إن لم تصرف عنى إغراء هؤلاء النسوة، فسوف

أضعف بحكم بشريتى وأصبو إليهن وأكن من الجاهلين.

وفى هذه الآية لمحة قرآنية عميقة تحتاج إلى وقفة تأمل.. لماذا تكون الصبوة إلى الجميلات الحسان ذوات الفتنة جهالة؟

وما الذى جهله ذلك الذى أغرم صبابة وهام جداً؟

وما نوع الجهل المقصود؟

إن المغرم صبابة يمكن أن يكون من حملة الدكتوراه، ويمكن أن يكون وزيراً، ويمكن أن يكون فقيهاً، ويمكن أن يكون عالماً ، ويمكن أن يكون صوفياً، سالكاً طريق أهل الله. فسقطة الحب ليس فيها كبير.. وفتنة المرأة يمكن أن يقع فيها الرجال على تنوع ثقافاتهم.

إذن الجهل المقصود هنا ليس هو الجهل المتعارف عليه.. ليس هو الجهل بالحساب والكيمياء والجغرافيا.. وليس هو الجهل بالفلسفة والفقه وعلوم الكلام.. وليس هو حتى الجهل بالشريعة.. لأن النبى يوسف لو أنه سقط لما كان سقط عن جهل بالنصوص والوصايا.. إنما الجهل المقصود هنا أعمق.. هو جهل بروح الأمر.. وسره وخفاياه.. جهل بروح الشريعة وحكمتها ومقصودها الباطن.

فما هو روح الأمر؟

ولماذا جهل ذلك المغرم صبابة روح الأمر حينما نظر إلى وجه حبيبته فتعلق به، وافتتن وهام وارتبط به بكل همته وعزمه، وجعل من ذلك الحسن والجمال شغله الشاغل بالليل والنهار.

إنه جهل تماماً ـ وبلا شك ـ لأنه قد فاتته لغة الله التى كلمه بها من خلال وجه حبيبته الجميل.

فالله يقول له من خلال هذا الوجه أنا الظاهر والباطن **وأنا الأول والآخر.**

أنا الجمال الظاهر الذى فتنك فلا تنسبه لغيرى.

وأنا الحسن والبهاء الذى بهرك، فلا تظنه لحبيبتك وتنسانى.. فغدا وبعد سنوات لو نظرت إلى هذه الحبيبة عينها فلن ترى فيها إلا وجهاً مغضناً، وخدا هضيماً وجلداً مجعداً.. وبالموت سوف تغدو رمة.. فجمالها ليس جمالها، إنما هو جمالى، وحسنها ليس حسنها وإنما هو حسنى، أنا أعطيته إياها على سبيل الإعارة والإنعام.. لأنعم عليها وعليك وأجمِّل حياتها وحياتك.. فكيف تنسانى وتعطى نفسك كلية لها وتعطينى ظهرك، وتجتمع عليها بكل همتك وتتفرق عنى؟!

تلك يا عبدى قطيعة وجهل بأصل النعمة، وإغفال لليد الحقيقية التى أنعمت وأعطت.

ولأن هذه الصبابة قطعت صاحبها عن الله، وحجبته عن نور ربه، فقد سماها الصوفى أبو حامد الغزالى سقوطاً، واعتبر الغرق فى حب امرأة واحدة إشراكاً بالله.. فلا يصح التوحيد فى الحب إلا لله وحده، ولا يعشق وحده ولا على وجه الإفراد الكامل إلا الله.. وتلك عند الغزالى من أسباب الحكمة الخفية لتعدد الزوجات.

إن المغرم صبابة جاهل.. لأنه لم يعرف مَنْ هو الجميل؟ إنه غرق فى تقبيل نحاس الضريح فى حين أن المحبوب الحقيقى هو روح الحسين مثلاً.. وتلك وثنية سقط فيها العاشق ولم يدركها.

وكل مغرم صبابة هائم بالشفتين والنهدين، مشغوف بلثم الخدود والقدود.. هو وثنى مادى عابد أصنام أنسته الشكليات

الجزئية الحاضرة محبوبه الحقيقى، وأنسته اليد الحقيقية التى كان يجب أن يلثمها.

وذلك باب شريف من الغيرة الإلهية.. أن يحرم الله هذه الصبابة، لأنه يغار على عبده ويراه جديراً بحب أرقى وأعلى.. ولا يحب أن يرى عبده يلحس اليدين والشفتين مثل كلب يلوك عظمة.. وكأنه يقول له : انظر لقد فاتتك وليمة أشرف، ولذات أعظم وشغلت نفسك بالمسائل الدون ولثمت الحجاب، وخلف الحجاب الوجه الذى دون جماله كل جمال.. خلف الحجاب وجهى أنا.

أنا سبحانى خلف الحجاب..

فانظر إلىّ يا عبدى، فإنى أنظر إليك.. وأنا فى عين كل ناظر، وعلى لسان كل متكلم.. وفى سمع كل مستمع، وأنا خلقت العالم من أجلك، وخلقتك من أجلى، ومن أجل أن تنظر إلىّ وأنظر إليك، فلا تنشغل بما هو لك، وبما هو فى خدمتك وتنسى ما أنت له بحكم رتبتك ووجاهتك.. وإلا فقد نسيت وجاهتك ووجاهتى، ورضيت لنفسك بدروم الخدم بما فيه من ملذات ومتع تافهة.. ولو خلدت إلى هذا البدروم واطمأننت إليه ووجدت نفسك فيه.. فأنت منه.. ومصيرك فى الآخرة بدروم الظلمة وعالم الأسفلين.. وأنا أغار عليك وقد كرمتك بما نفخت فيك من روحى، ورفعتك عن هذا السفل.. أن تعود فتقع فيه.. وحفظتك بشريعتى وأوامرى، وقضيت عليك بالرجم والجلد إن زنيت خوفاً عليك وحفاظاً عليك ولكى أبعدك عن

هذا المصير وعن عالم الأسفلين.. وأخفيت رحمتى فى عقابى.. فافهم.. افهم اليوم وإلا فما فهمت أبداً.

تلك روح الأمر..

وتلك فتنة الحجاب..

ومن وراء الحجاب الوجه الأجمل الأكمل الذى قال عنه سبحانه: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ (٨٨) ﴾ [القصص]

فكل مَنْ يرتبط بغير وجه الله يهلك.

وكل حب لغير وجه الله هو حب هالك..

يقول الله لنبيه فى حديث قدسى : « عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه».

فالفراق والإحباط والفشل نهاية كل حب لغير وجه الله.

إنما تكون العلاقة السوية على الأرض بين الرجل والمرأة هى علاقات المودة والرحمة.. والرحمة تشتمل على الحب المطلوب لعمارة الأرض ونجاح الأسر.. أما الحب صبابة والجنون غراماً .. والهلاك فى مفاتن الخدود والقدود.. فذلك هو الجهل المحظور وهو لثم نحاس الأضرحة.

وقانا الله أن نكون من أهل الصبابة.. وحفظك وحفظنى أن نكون من أهل الجهالة فى عصر كله جهالة.



الفن مسئولية!

الفن أحد المواهب التى يتميز بها الإنسان، وهو مهارة ينفرد بها مثل الكلام والتفكير وحرية الاختيار، فهو الحيوان الوحيد الذى يتكلم ويفكر ويبدع.

والفن هو تجلى أحكام الأسماء الحسنى الإلهية «الخالق والبديع والحكيم والعليم» فى النفس الإنسانية التى جعلها الله بحكم كرمه قابلة لعطاء الحكمة والعلم والخلق والإبداع.. فكما تجلى «السميع» فى سمع الإنسان، و«البصير» فى بصره.. كذلك تجلى «البديع» فى إبداعه.. وتجلى «الخالق» فيما يخلق الإنسان من فنون، فالفنون كلها مهارات طبيعية نولد بها.. وهى بعض عطايا الله ونعمه.

ولكن الإنسان الذى ولد حراً ومختاراً وخطَّاء ومتمرداً لم يوظف تلك المهارة دائماً فى الخير، وإنما انحرف بها أحياناً إلى الهوى والغرض والغواية، وإلى مجرد جلب الشهرة والجاه

والتأثير.. أحياناً بالنفع، وأحياناً بالضرر فى الآخرين.

فالفن الذى يربى العواطف رأيناه فى أكثر أفلام السينما يلعب بالعواطف ويلهو بالعقول، والشعر الذى يسمو بالوجدان رأيناه فى أكثر الأغانى يهبط بالوجدان ويسفل بالمشاعر، والموسيقى التى ترتفع بنا إلى آفاق الجمال والتأمل رأيناها تهبط بنا إلى الترقيص وحركات النسانيس..! وقل أكثر من هذا فى هزليات المسارح، وفى الحوار البذىء وفى المشاهد المسفة.. وفى عروض أقرب إلى الأفعال الفاضحة فى الطريق العام!

ولأن الفن يدخل إلينا الآن خلسة من تحت الباب فى الصحيفة اليومية والكتاب، ويتسلل إلينا فى غرفات النوم فى التليفزيون والكاسيت.. فقد تحول إلى وسيلة جهنمية فى تشكيل الأجيال وفى تربيتها أو إتلافها وغسل مخها.

وبهذا أصبح الفنان قادراً على أن يقتل وأن يضيع وأن يميت أمة، كما أنه قادر على أن يحييها ويبعثها.

ولأن الفن سلاح قاتل ، فلا يصح أن يكون حراً حرية مطلقة وحرية الفنان وحرية الفن دعاوى غير صحيحة، فالفنان حر مسئول محاسب، وكحامل أى سلاح يمكن أن تسحب منه رخصة استعماله إذا أساء هذا الاستعمال.

وإذا كان الفنان يطالبنا بأن نحميه، فالجمهور القارىء والمشاهد ـ وهم بالملايين ـ لهم هم الآخرون حق الحماية من الإسفاف الذى يعرض عليهم.

وكلمة فنان لا تعنى العصمة من المساءلة، ولا تعنى الحصانة، بل على العكس تعنى المسئولية.. ومحكمة النقد وسيف الرقابة

حماية ضرورية للمواطنين.

والتليفزيون يحتاج إلى أكثر من هذا، لأنه يباشر تأثيره على الطفل والصبى واليافع، وعلى المرضى فى أسرتهم وعلى المراهقين فى خلواتهم.

التليفزيون فى حاجة إلى مجلس حكماء يمنع هذا السيل الهابط من الأفلام والعروض المبتذلة والأغانى الساقطة والحوار المسف والرقص البذىء.

وليس هذا كلاماً فى الدين.. وإنما فى أوليات علم الاجتماع.

أما الفنان الذى يسألنى : هل ما أفعله حلال أم حرام؟

فأقول له : أنا لا أفتيك.. ولكن يفتيك قلبك.

اسأل نفسك: هل ما تفعله نافع ومفيد للناس؟ أم تراه ضاراً بهم؟!

وستعرف أين أنت.

ولا مانع من أن يكسب الفنان ويزداد غنى، ولكن من طريق يجعل مشاهديه وقراءه يكسبون هم الآخرون ويزدادون به ثراء وغنى.

أما الفنان الذى يهبط بقرائه وينزل بمشاهديه، فإن ما يأخذه من مال لا يدخل فى باب الكسب.. لكن فى باب النشل!

والذى يسأل: هل هناك فن ردىء؟.. وكيف يمكن أن يسمى فناً برغم رداءته؟.. أقول: بل هو فن.. ولا يمتنع على الفن أن يكون رديئاً.. لأن الفن مهارة وموهبة، والموهبة يمكن أن يوظفها صاحبها فى الخير ويمكن أن يوظفها فى الشر.. وهى كالقوة العضلية وكحدة البصر وحدة السمع وسرعة البديهة والذكاء..

وكلها مواهب أحياناً توظف للخير وأحياناً للجريمة.

والفنان يمكن أن يكون شريراً، فيعبر عن شره فى فنه.. ومن الأعمال الفنية العالمية ما يقطر تشاؤماً، ومنها ما يسيل حقداً، ومنها ما ينبض بالعدوانية، ومنها ما يحض على الفوضى، ومنها ما يدعو إلى المادية والإلحاد والرفض والعدمية.. وأصحاب هذه الأعمال فنانون عالميون من حملة النياشين والجوائز.. ولهم جاه وشهرة وجمهور.. ولهم يخوت وقصور.

ولكن هذا الفن السالب يدخل عند الله فى باب الذنب.. وإن كان فى ناموس الدنيا يدخل فى باب الحسنات ويدخل أصحابه فى باب العظماء!

ومقاييس الدنيا تخطىء أحياناً ، وهى تتغير دائماً وفى جميع الأحوال.. فكم من ملايين المشيعين ساروا يبكون خلف جنازة ستالين..! وكم كتاباً مجده وكم مقالة عظمته! وكم تمثالاً ارتفع له! وكم عملة ذهبية صكت باسمه!

ثم تغيرت المقاييس، فأصبح الممجد ملعوناً، والمعظم مطروداً! ولا ندرى ماذا يجرى غداً فى العالم الذى يتغير فيه كل شىء!

وما يجرى فى بورصة العظمة الفنية أعجب!

بالأمس بيعت لوحة للفنان فان جوخ بأربعين مليون دولار.. وفى حياته كان يحاول أن يبيعها برغيفين فلا يجد مشترياً!

وبيكاسو مات فى قمة مجد فنى، ولا ندرى بعد مائة سنة ماذا يقول الفنانون أنفسهم فى تراثه الفنى!

أغلب الظن أن معظم أعماله سوف تدخل فى باب العبث والتجارب العبثية.

ويظل هناك مقياس لا يخطىء ولا يخيب لكل أعمال الإنسان ـ فنية كانت أو فكرية أو فلسفية أو سياسية أو اجتماعية ـ هو المقياس الذى جاء به القرآن.

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ..(١٧) ﴾ [الرعد]

فالفن الخيِّر البنَّاء هو الذى سيبقى لصاحبه، وهو الذى سيغدو له حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة.

أما الفن الضار والهدام والهابط ، فهو الخسارة والبوار، مهما جلب لصاحبه من ثراء ومال ومجد دنيوى، ومهما حمل له فى قبره من جوائز وأوسمة ونياشين.

وكم من فنون هى فى النهاية مجرد لهو وقتل للوقت ومضيعة للعمر!

وكم من أشعار عظيمة السبك وهى مع ذلك غزل فى المذكر، أو مدح لحاكم، أو هجاء موتور، أو زهو مغرور، أو تأله فارغ!

وهى فن متألق، وكلمات تخلب اللب.. ولكنها فى الآخرة أوزار يتمنى صاحبها لو لم ينطق بها، ووصمة يتمنى لو يبرأ منها!

وقفة تأمل!

بالرغم من قيمة مشاعر الحب عندى وعندكم معاشر القراء والقارئات، وبالرغم من أن الحب يكاد يكون صنم هذا العصر الذى يحرق له البخور، ويقدم له الشباب القرابين من دمائهم، ويقدم له الشيوخ القرابين من سمعتهم، وترتل له الأناشيد، ويزمر له الزامر، ويطبل الطبال، وترقص الراقصة، وتعمل بلاتوهات السينما واستوديوهات التليفزيون، وكباريهات شارع الهرم ليل نهار لتمجيده ورفعه على العرش، ليكون المعبود الأول والمقصود الأول، والشاغل الأوحد والهدف الأوحد، والغاية المثلى للحياة التى بدونها لا تكون الحياة حياة.

وبالرغم من أننا جميعاً جناة أو ضحايا لهذا الحب، وليس فينا إلا من أصابه جرح أو سهم أو حرق، أو أصاب غيره بجرح أو سهم أو حرق.

بالرغم من هذه الأهمية القصوى، والصدارة المطلقة لموضوع

الحب فى هذا الزمان، فإننى أستأذنكم فى إعادة نظر وفى وقفة تأمل، وفى محاولة فهم لهذا التيه الذى نتيه فيه جميعاً شيوخاً وشباباً وصبايا.

وأسأل نفسى أولا وأسألكم:

هل تعلمون لماذا يرتبط الحب دائماً بالألم؟ ولماذا ينتهى بالدموع وخيبة الآمال؟!

دعونى أحاول الإجابة، فأقول: إن الحب والرغبة قرينان.. وإنه لا يمكن أن تحب امرأة دون أن ترغبها، ولهذا ما تلبث نسمات الحب الرفافة الحنون أن تمازج الدم واللحم، والجبلة البشرية، فتتحول إلى ريح وإعصار وزوبعة بسبب الشهوة العارمة، واللذة الوقتية التى ما تكاد تشتعل حتى تنطفىء.

والشهوة فى طبيعتها العنف والعدوان والامتلاك والتسلط.

هل أقول إن الحب يتضمن قسوة خفية، وعدواناً مستتراً؟

نعم هو كذلك إذا اصطبغ بالشهوة، وهو لا بد أن يتلون بالشهوة بحكم البشرية.

والمرأة التى تشعر بأن الرجل استولى على روحها، تحاول هى الأخرى أن تنزع روحه وتستولى عليها.. وفى ذلك عدوان خفى متبادل، وإن كان يأخذ شكل الحب.

والمرة الوحيدة التى جاء فيها ذكر الحب فى القرآن هى قصة امرأة العزيز التى شغفها فتاها (يوسف) حباً.

فماذا فعلت امرأة العزيز حينما تعفف يوسف الصديق؟

وماذا فعلت حينما دخل عليهما الزوج؟ لقد طالبت بإيداع يوسف السجن وتعذيبه!

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾ [يوسف]

وماذا قالت لصاحباتها وهى تروى قصة حبها؟

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ [يوسف]

إن عنف حبها اقترن عندها بالقسوة والسجن والتعذيب!

وماذا قال يوسف الصديق؟

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ (٣٣) ﴾ [يوسف]

لأنه أدرك ببصيرته أن الحب سجن، وأن الشهوة قيد، إذا استسلم له الرجل أطبق على عنقه حتى الموت.. ورأى أن مكثه فى السجن عدة سنوات، أرحم من الخضوع للشهوة التى هى سجن مؤبد إلى آخر الحياة.

إن الحب لا يظل حباً صافياً رفافاً شفافاً، وإنما ما يلبث بحكم الجبلة البشرية أن يصبح جزءاً من ثالوث هو: الحب والجنس والقسوة، وهو ثالوث متلاحم يقترن بعضه ببعض على الدوام.

ولأن قصة الحب التى خالطتها الشهوة ما تلبث أن تنتهى إلى الإشباع فى دقائق، ثم بعد ذلك يأتى التعب والملل والرغبة عند الاثنين فى تغيير «الطبق» وتجديد «الصنف» لإشعال الشهوة والفضول من جديد..! لهذا ما يلبث أن يتداعى الحب إلى شك فى كل طرف من غدر الطرف الآخر، وهذا بدوره يؤدى إلى مزيد من الارتياب والتربص والقسوة والغيرة، وهكذا يتحول الحب إلى تعاسة وآلام ودموع وتجريح.

والحب لا يكاد ينفك أبداً عن هذا الثالوث، «الحب والرغبة

والقسوة»، وهو لهذا مقضى عليه بالإحباط وخيبة الأمل، ومحكوم عليه بالتقلب من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى النقيض، فيرتد الحب عداوة ، وينقلب كراهية وتنتحر العواطف كل يوم مائة مرة، وذلك هو عين العذاب.

ولهذا لا يصلح هذا الثالوث أن يكون أساساً لزواج، ولا يصلح لبناء البيوت، ولا يصلح لإقامة الوشائج الثابتة بين الجنسين.

ومن دلائل عظمة القرآن وإعجازه أنه حينما ذكر الزواج، لم يذكر الحب، وإنما ذكر المودة والرحمة والسكن.

سكن النفوس بعضها إلى بعض.

وراحة النفوس بعضها إلى بعض..

وقيام الرحمة وليس الحب، والمودة وليس الشهوة.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١) ﴾ [الروم]

إنها الرحمة والمودة.. مفتاح البيوت.

والرحمة تحتوى على الحب بالضرورة، والحب لا يشتمل على الرحمة، بل يكاد بالشهوة أن ينقلب عدواناً.

والرحمة أعمق من الحب وأصفى وأطهر.

والرحمة عاطفة إنسانية راقية مركبة، ففيها الحب، وفيها الإخوة، وفيها الصداقة وفيها الحنان، وفيها التضحية، وفيها إنكار الذات، وفيها التسامح، وفيها العطف، وفيها العفو، وفيها الكرم.

وكلنا قادرون على الحب بحكم الجبلة البشرية وقليل منا هم القادرون على الرحمة.

وبين ألف حبيبة هناك واحدة يمكن أن ترحم، والباقى طالبات

هوى ونشوة ولذة.

ولذلك جاء كتاب الحكمة الأزلية الذى تنزل علينا من الحق.. يذكرنا عند الزواج بالرحمة والمودة والسكن، ولم يذكر كلمة واحدة عن الحب، محطماً بذلك صنم العصر ومعبوده الأول، كما حطم أصنام الكعبة من قديم.

والذين خبروا الحياة وباشروا حلوها ومرها، وتمرسوا بالنساء يعرفون مدى عمق وأصالة وصدق هذه الكلمات المنزلة.

وليس فى هذه الكلمات مصادرة للحب، أو إلغاء للشهوة وإنما هى توكيد، وبيان بأن ممارسة الحب والشهوة بدون إطار من الرحمة والمودة والشرعية هو عبث لا بد أن ينتهى إلى الإحباط.

والحيوانات تمارس الحب والشهوة وتتبادل الغزل. وإنما الإنسان وحده هو الذى امتاز بهذا الإطار من المودة والرحمة والرأفة، لأنه وحده هو الذى استطاع أن يستعلى على شهواته: فيصوم وهو جائع ويتعفف وهو مشتاق.

والرحمة ليست ضعفاً وإنما هى غاية القوة، لأنها استعلاء على الحيوانية والبهيمية والظلمة الشهوانية.

الرحمة هى النور، والشهوة هى النار.

وأهل الرحمة هم أهل النور والصفاء والبهاء، وهم الوجهاء حقاً.

والقسوة جبن، والرحمة شجاعة.

ولا يؤتى الرحمة إلا كل شجاع كريم نبيل.

ولا يشتغل بالانتقام والتنكيل إلا أهل الصغار والخسة والوضاعة.

والرحمة هى خاتم الجنة على جباه السعداء الموعودين من أهل الأرض، تعرفهم بسيماهم وسَمْتهم ووضاءتهم.

وعلامة الرحيم هى الهدوء والسكينة والسماحة، ورحابة الصدر، والحلم والوداعة والصبر والتريث، ومراجعة النفس قبل الاندفاع فى ردود الأفعال، وعدم التهالك على الحظوظ العاجلة والمنافع الشخصية، والتنزه عن الغل وضبط الشهوة، وطول التفكير وحب الصمت، والائتناس بالخلوة وعدم الوحشة من التوحد، لأن الرحيم له من داخله نور يؤنسه، ولأنه فى حوار دائم مع الحق، وفى بسطة دائمة مع الخلق.

والرحماء قليلون ، وهم أركان الدنيا وأوتادها التى يحفظ بها الله الأرض ومَنْ عليها . ولا تقوم القيامة إلا حينما تنفد الرحمة من القلوب، ويتفشى الغل، وتسود المادية الغليظة، وتنفرد الشهوات بمصير الناس، فينهار بنيان الأرض وتتهدم هياكلها من القواعد.

اللهم إنى أسألك رحمة.

اللهم إنى أسألك مودة تدوم.

اللهم إنى أسألك سكناً عطوفاً وقلباً طيباً.

اللهم لا رحمة إلا بك ومنك وإليك.

هتك الستر!



غاية ما يطمح إليه الحبيب أن يصل إلى المكاشفة التامة مع حبيبه، وأن تزول بينهما المسافة، وأن يصبح هو هى وهى هو، وأن ينتهى السر، ويهتك الحجاب.

وهو وهم شائع !

وخطأ بات من كثرة التداول حقيقة مسلما بها !

فلو انهتك الحجاب بين اثنين لانتهى الحب بينهما فورا، فالحب قرب وليس فناء .. وهو تلامس أسرار، وليس تعرية وانكشافا.

هل تحب أن يدخل عليك أحد « التواليت » ؟! وماذا يكون شعورك وأنت ترى أحدا يطلع عليك وأنت تباشر هذه الضرورة ؟

ومع ذلك ، فهى حقيقة .. نحن نأكل .. ونحن نتبول .. ونحن نخرج فضلات.

ولنا لحظة شهوة نكون فيها أكثر عبودية، وبالتالى أكثر خجلا من أنفسنا.

ومن هنا جاءت كلمة العورة .. وكلمة الستر .. فذلك ضعف لا نحب أن نطلع أحدا عليه .. برغم أنه أمر معروف ومشترك فينا جميعا .

ثم إن الحب عاطفة تهفو، وتشب وتتطلع طالما كان هناك فضول .. وتشتعل طالما كان هناك سر ، فالسر يشعل الخيال .. والخيال مادة الحب وخامته .. وبدون خيال لا يبقى إلا تبادل المصالح وإشباع الغرائز .

الخيال هو الشعر والوهم والأحلام .

الخيال جناحان يطير بهما الحب ويعلو على الواقع، وبدون هذين الجناحين يقع الحب ويتحطم، ويجف ويذبل ويتكسر على أرض المصالح .

وإذا كنت تحرص على دوام حبك، فلا تحاول أن تفقد هذه الأرض وتهتك هذا الستر .

ولهذا قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » لأن الله إراد لكل واحد منا أن تكون له خصوصية لا تنتهك، وسر بينه وبين ربه لا يطلع عليه إلا ربه، ولكل منا وجه إلى الناس، ووجه إلى الله ..

وذلك الوجه الثانى هو سره .

وانتهاك هذا الوجه عدوان، وطمع من الحبيب فيما ليس له .

ولهذا أشعر دائما بأن مَنْ يحاول أن يقتحم المسافة بينى وبينه باسم الحب .. إنما يفعل ذلك بحكم الكراهية وليس الحب ، فهو يريد أن يلتقط لى صورة فى التواليت، ويسجل علىَّ الوساوس التى لا تليق بى .. ويحاول أن يفضحنى !

وذلك هو الحب الأنانى الذى يريد فى واقع الأمر أن يتخلص

منى، ويستهلكنى ويستنفدنى ويقضى علىَّ .

وتلك هى القسوة المقنعة التى نتبادلها باسم الحب .. والعدوان الذى نباشره باسم العشق !

ولهذا ضرب الله لنا مثلا على الكمال باسمه « العزيز » ، فهو سبحانه العزيز الذى لا ينال .

وعلى مَنْ يريد أن يكون كاملا أن يكون هو الآخر عزيزا لا ينال.

فالعزة والمنعة من صفات الكمال .

والشيوع والانكشاف من صفات الابتذال .

ومن هنا وجب أن تكون هناك مسافة بين الأحباء، وأن يكون الحب قربا وليس اقتحاما .

وتلك المسافة هى التى اسميها الاحترام .. حيث يحترم كل واحد سر الآخر، فلا يحاول أن يتجسس عليه .. ويحترم ماضيه ويحترم ما يخفيه فى جوانبه، ويحترم خصوصيته وخلوته وصمته، ويحاول أن يكون سترا وغطاء، لا هتكا وتدخلا وتلصصا ونشلا !

فالحب عطاء اختيارى حر، وليس مصادرة قهرية وسلبا واغتصابا .

وفى هذه الحرية جوهر الحب .

والله يقول عن عطاء الأسرار والعلم الذى يعطيه لعبيده :

﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وتلك هى العزة، فالله يعطى ما شاء من علمه لمَنْ يشاء .. لا يستطيع أحد أن يغتصب منه ما لا يريد .

وبالمثل الكاملون أهل الرحمة والمودة وأصحاب الأخلاق الربانية لايحبون أن يغتصبوا، ولا أن تنتهك أسرارهم .. وإنما يحبون أن تظل لهم الحرية يعطون من أسرارهم ما شاءوا، وهم بالمثل لا يفكرون فى انتهاك سر أحد أو اغتصابه .

وتلك هى المسافة المقدسة .

وذلك هو الحمَى الخاص لنفوسنا، لا يصح أن يطمح أحد إلى دخوله أو فضحه، ومَنْ يفعل هذا يقتل الحب ولا يحييه .

وحول هذا الحمَى يجب أن نقيم نطاقات عديدة من الأسلاك الشائكة، ونطلق العديد من كلاب الحراسة، ونبنى نقاطا للإنذار المبكر !

فذلك قدس أقداس الذات الذى لايصح أن يطَّلع عليه أحد إلا رب الذات وخالقها، لأنه وحده الرحمن الرحيم الذى يرحم الضعيف، ولأنه وحده الغفور الكريم الذى قال لنا إنه يغفر الذنوب جميعا .

﴿ قُلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣) ﴾ [الزمر]

ولهذه الرحمة الشاملة، والمغفرة الكلية كشفت له الذات وجهها دون خوف، فى حين احتجبت عن العالمين .

ولهذا نقول : إن الله يحب عبده الصالح الراجع إليه، أكثر من حب الأم ابنها، وأكثر من حب الحبيب حبيبته، وأكثر من حب الراعى شاته الضالة حين يراها عائدة إليه

وكيف لا يحبنا مَنْ نفخ فينا من روحه، واسجد لنا ملائكته، وسخر لنا أكوانه، وفتح للمذنبين منا كنوز مغفرته ؟! بل نظلمه إذا

ساوينا بين حبه وأى حب من هذه الهزليات التى نقرؤها عن روميو وجوليت وقيس وليلى .

بل لا يساوى حرماننا من حبه حرماننا من أى حب، ولا حرماننا من أى غال !

ولا يساوى غضبه علينا أى غضب .

وعلى خطايانا يجب أن نبكى حقا، وليس على أى هجر أو أى فراق، أو أى مرض أو أى موت، وذلك حال الذين قدروا الله حق قدره .

﴿ وما قدروا الله حق قدره .. (٦٧) ﴾ [الزمر]

لأنه لا أحد يستطيع أن يحيط بنعمه وعطاياه ومحامده ولهذا حمد نفسه بنفسه وقال : **﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾** .

لأنه لا يقدر على الحمد حقا إلا من أحاط بالأفعال الكريمة كلها، والمحامد كلها .. وذلك أمر لا يعرفه عن الله إلا الله ذاته .

ولهذا قال : **﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾**

فهو الحامد المحمود .

وهو وحده المستحق للحب الكامل دون العالمين .

وحسبنا نحن أن نتبادل من الحب المودة والرحمة .



قضية كل عصر!

فى أمريكا عشرة آلاف جمعية روحية، وفى البرازيل ثلاثمائة مجلة روحية، وفى العالم آلاف الكتب والمراجع والنشرات والدوريات تصدر كل يوم تتناول موضوعات غامضة مثل : الرؤى والأحلام والأطياف والهواتف والبيوت المسكونة، وظواهر انتقال الأفكار والجلاء البصرى، والإدراك خارج الحواس والتنبؤات الصادقة، وقدرة العقل على تحريك المادة عن بعد، والاتصال بالنفوس بعد موتها عن طريق الوسطاء .. وغيرها وغيرها ..

وقضية الخلود بعد الموت قضية مثيرة .. وهى قضية كل عصر وكل زمان .. ولا يفتأ الإنسان يحاول أن يتسمع إلى ما وراء القبر، ويحاول أن يفتح نافذة على الغيب أو يلتمس ثقبا يطل من خلاله على عالم الأشباح .. وكلمات الدين لا تشبعه، فيحاول أن يعرف أكثر . واليوم يفتحون الملف القديم لقضية التناسخ .. ولكن

بمفهوم جديد وليس بالمفهوم الهندى القديم الذى يقول بعقاب النفوس الإنسانية الشريرة بردها فى أجسام حيوانات . إنهم يرفضون هذا المفهوم .. ويقولون إن النفوس بعد الموت تعود إلى الميلاد فى أجساد إنسانية جديدة ليعطيها الله فرصة جديدة لتعانى وتتعلم وتحقق ذواتها وتثوب وتتطهر وتكتمل خلقيا فى رحلة تطور ومشوار ربما امتد آلاف السنين قبل أن ترفع إلى عوالم عليا حسبما تستحق من منازلها . ويقولون إن كل نفس من نفوسنا لها تاريخ ومن أدلتهم على هذه التجسدات السابقة أنك تمر بمكان لأول مرة، فيخيل إليك أنك تعرفه وأنك رأيته من قبل وأن تسمع صوتا لأول مرة، فيخيل إليك أنك سمعته من قبل، تحب شخصا بدون سبب أو تكره آخر بدون مبرر (وكأنما كان لكما لقاء تعارف فى حياة سابقة !) وأن ترى فى الأحلام مدنا وأماكن لم تزرها ولم تطأها قدماك، ويحدث أحيانا أثناء التنويم المغناطيسى أن تسمع الوسيط يتكلم لغة أجنبية دون أن يكون قد تعلم منها حرفا ويتحدث بها بطلاقة عجيبة، فإذا رده المنوم إلى تذكر ما قبل مولده حكى عن حياته فى ذلك البلد الأجنبى وكيف ولد من أب وأم يابانية فى طوكيو فى شارع كذا فى البيت رقم كذا تحت اسم كذا .. ويحدث بالتحقيق والاستقصاء أن تتضح أن تلك البيانات صحيحة.

ثم ما يلاحظ من سلوك الأطفال وما نرى من أن سلوكهم هو أبعد ما يكون عن البراءة والطهارة التى تروى عنهم ، ففيهم الخبث والمكر والكذب والملق والأنانية، وهناك الطفل الذى يعض على حلمة ثدى أمه فى قسوة وهناك الآخر الحنون الذى يربت

عليها فى لطف .. وذلك منذ اليوم الأول وقبل أن يتلقى أحدهما أى مؤثر من البيئة .. فمن أين جاء الأول بكل هذه الشخصية العدوانية ومن أين جاء الثانى بكل ذلك الحنان وهما بعد فى الساعة الأولى من حياتيهما . وكم رأينا من عباقرة ولدوا من آباء خاملين ؟!

وكم رأينا من أبطال شجعان ولدوا من آباء جبناء رعاديد .. وأين نوح من ابنه الكافر وأين إبراهيم النبى من أبيه عابد الأصنام؟!

إن البيئة لا تصنع شيئاً من حقيقة الطفل ، ولا الوراثة تعطيه سوى مجرد إطار لشخصيته .. أما سره وخيره وشره وحقيقته، فيأتى بها من الغيب من تراكم أفعاله فى حيوات سابقة .. وإنما تكون وراثة الإنسان الحقيقية من نفسه ، ويأتى طبعه من تراكم اختياراته المتكررة التى تحولت إلى عادات من كثرة تواترها .

ويتصور أصحاب هذه الفكرة أن كل النفوس متساوية ، وأنها جميعاً تبدأ ساذجة جاهلة .. وكل الفارق أن بعضها يطول مشواره، ولكنها جميعاً واصلة وجميعها صائرة إلى الجنة .. ولهذا ينكرون القيامة الكبرى والحشر الجمعى ، كما ينكرون فكرة الجحيم .. اكتفاء بأن الله يعاقب النفوس بردها إلى التجسد الدنيوى مرة بعد مرة لتعانى ثمرة خطاياها حتى تتطهر وتتوب وتصبح مستحقة للجنة الأبدية والميراث السماوى .

ولا يوجد كلام أشد خطأ من هذا الكلام ، فالواقع برمته ينفى تماماً أى قول بالمساواة بين النفوس ، والكون كله مبنى على أساس التفاضل والتمايز بين المخلوقات ، حتى فى مملكة النبات

تتفاضل الرتب ، حتى فى الصنف الواحد ، فنجد فى البرتقال أنواع السكرى والبلدى والصيفى ، وفى العنب نجد البناتى والفيومى وجاناكليس ، وفى القطن نجد طويل التيلة وقصير التيلة وجيزة ٧ ، وفى العناكب نجد مائة ألف صنف لا يشبه الواحد منها الآخر وفى الزهور خمسمائة ألف نوع لا تشبه زهرة الأخرى، وفى الأسماك والأحياء البحرية تصانيف أكثر .

وفى النفوس البشرية أعجوبة الأعاجيب ! فى عالم الخلق لا يتساوى اثنتان ولا تتشابه بصمتان ، فالكلام عن المساواة فى المراتب والمنازل والمصائر هو محض هذيان . وبشهادة خالق النفوس أن أكثرها هالك : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾ [يس]

والأمر المشاهد بالفعل أن أكثر النفوس تظل على إصرارها فلا تتعظ ولا تعتبر ، وتظل تعاود شرورها مرة بعد مرة ، برغم وعدها لربها بالإقلاع والتوبة كل مرة . وفى إبليس نجد نموذجاً عجيباً من الإصرار على المخالفة .. فهذا مخلوق أمهله ربه ليعيش دون موت من مبدأ آدم إلى قيام الساعة ، وهى مدة بالتقدير الزمنى أكثر من عشرة ملايين سنة (عمر البشرية منذ آدم) وهو لا يزال قائماً على الغواية والإفساد لم يتطور ولم يتكامل ولم يتطهر ولم يرجع عن إفساده قيد أنملة ! بل ماذا فعل هتلر وستالين ونيرون وكاليجولا ؟!.. إن هتلر وحده كان مسئولاً عن قتل عشرين مليوناً من الأنفس ، ومثله ستالين فى الحرب العالمية الثانية وما بعدها . أيرون أن من العدالة أن ترد هذه النفوس إلى تجسدات دنيوية ثانية لتقتل أربعين مليوناً أخرى ؟!

ومَنْ يكون أولى بالرحمة فى نظر العناية الإلهية .. أن يرد الله هذه النفوس رأفة بها لتأخذ فرصة أخرى فى القتل والذبح ، أم أن تكون تلك الملايين من ضحاياها هى الأولى بالرحمة فلا يردها وإنما يؤجلها ليوم الفصل لأنها استوفت من الشر غايته ؟!

إن القول إن النفوس تستوى فى خيرها وشرها ، وأنها مستحقة جميعها للجنة وللميراث السماوى بعد طول المشوار هو قول ساذج .. فإن ما بين النفوس من التفاوت أكبر مما بين فلك وفلك ! ولهذا يقول ربنا عن التفاضل بين النفوس وعن تمايز درجاتها : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) ﴾ [الإسراء]

أى أن ما نعرف من التمايز الطبقى فى الدنيا لا يساوى شيئاً إلى جوار التفاوت فى الدرجات فى الآخرة . وهو تفاوت عادل بحكم تفاوت الحقائق وتفاوت المراتب . فهناك الملك وهناك الشيطان ، وهناك الإنسان الذى جاوز فى خيره رتبة الملك كما أن هناك من جاوز فى شره رتبة الشيطان .. والثواب والعقاب بهذه الصورة التى يحكونها بالرجعة إلى الأجساد مرة بعد مرة .. لا يشكل ثواباً ولا عقاباً ، لأن الإنسان يأتى كل مرة ناسياً تماماً لحياته السالفة .. فحلقة السبب والنتيجة مبتورة .. وإنما هى مجرد تعداد للفرص وللإمكانات لا أكثر ، إن صحت مزاعم العودة للتجسد وذلك حتى يحق القول فى النهاية فى ذلك المشهد الذى تهتك فيه الأستار وتنكشف الخبايا وتفتضح الخفايا .. وذلك هو النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون . وذلك هو يوم الحاقة والصاخة والغاشية والقارعة والرجفة والزلزلة والساعة ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم التغابن (يوم يشعر كل إنسان بأنه ظلم نفسه) .

وهو اليوم الذى يقتضيه الجلال الإلهى .. وتقتضيه العظمة والقدرة والهيمنة والعدل النهائى الفاصل والكامل .

وشهادة الأرواح المراسلة التى حكى عنها الزميل الدكتور رؤوف عبيد فى كتابه (العودة إلى التجسد) .. أمثال سلفر بيرش وهوايت راى وهوايت إيجل وغيرها لا يصح أن تقوم لها حجة أمام الروح الأمين جبريل .. وأمثال تلك الأرواح هى بشهادة الدكتور عبيد أكثرها هازل وكاذب ويروى أوهاماً وأضاليل .. وهى نفوس مثل كل النفوس يجوز عليها الخطأ . وعلم الأرواح هو علم يؤخذ منه ويرد وهو لا يخلو من التخليط ولا يصح أن ينظر إليه بأنه صدق كله .. وهو فى أحسن الأحوال مجرد مناسبة للتأمل والتفكير .. وأكبر خلط يقع فى هذا العلم هو الخلط بين كلمة « نفس » وكلمة « روح » ... وكل ما يذكر فى هذا العلم هو عن النفس وليس عن الروح .. وإذا صح مبدأ الرد إلى الأحياء ، فإنما النفس هى التى ترد وهى التى تعانى لتتطهر وتتكامل .. أما الروح ، فهى مبدأ إلهى قدسى لا يجوز الكلام عنها بأنها تعانى أو تتطهر أو تتكامل ، فلا نقص بها لكى تتكامل ، ولا رجس فيها لكى تتطهر .

والروح هى المبدأ الإلهى الذى به تحيا النفس ، ويحيا الجسد، فهى سر الحياة فى النفس ، وسر الحياة فى الجسد ، وهى واحدة لا تختلف فى أى إنسان عن آخر بحيث لا يجوز أن نقول روح فلان .. وروح علان .. وإنما الصواب أن نقول نفس فلان ونفس علان، فهى التى تختلف من واحد لآخر .. وإذا صحت ظواهر حضور الأرواح .. فليست الأرواح هى التى تحضر . بل النفوس ..

ومن هذه النفوس مَنْ يكون من الجن أو من البشر المنتقل ، أما الأرواح، فهى متعلق الحياة فى كل حى وهى مبدأ إلهى لا نعلم عنه شيئاً. وهى لا تحضر ولا تغيب .. وهى ليست فلاناً أو غير فلان .

وكبير الملائكة جبريل هو الوحيد الذى أطلق عليه اسم الروح ، وهو الوحيد الذى يمكن النظر إليه على أنه روح محضة ، ولهذا لا يقول إلا الحق ولا ينطق إلا بالصدق .. أما باقى النفوس، فيجوز عليها الخطأ ولا تجوز تسميتها إلا بالنفوس .. ولهذا ينسب الله الروح إلى نفسه ، فيقول : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ (٢٩) [الحجر] وينسب النفس إلى صاحبها فيقول : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ (٣٠) [المائدة] . لأن الروح لله أما النفس فلصاحبها . ولأن النفوس تتفاوت ولأن مراتبها تتفاوت ، فيلزم أن تتفاوت مصائرها وتلزم قيامة شاملة (غير العودة الفردية للتجسد) يجسد فيها الله النفوس ويحشرها ليوم الجمع الذى يجمع فيه الناس لحساب ختامى يطلع فيه كل نفس على كتاب أعمالها ويشهدها على سجل أفعالها فى كافة تجسداتها السالفة .. هذا إن صح قولهم .. ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٤٩) [الكهف]

ويحق القول فيه بالجنة خلوداً ، أو بالنار أبداً .. بعد هذا التمحيص الأزلى للنفوس بهذا العديد اللانهائى من الفرص .

والذين يستبشعون حكم الله بالنار الأزلية ويرون فى هذا الحكم ما يناقض الرحمة الإلهية لا يعلمون أن الله سوف يختار للنار نفوساً نارية هى فى ذواتها شعلات من الحقد والغل ..

والنار ستكون هى البيئة الطبيعية لتلك النفوس والمكان المناسب لحقيقتها ، فأين يمكن أن توضع مثل تلك الشعلات النارية إلا فى نار ؟! ثم .. ألا يتحدث القرآن عن نزلاء تلك النار فيقول : إنهم يتحادثون ويتخاصمون ويتلاعنون ويأكلون ويشربون .. ويقول لنا : إن فى تلك النار شجرة .. تخرج فى أصل الجحيم وإن فيها ماء ؟! .. فهى إذن نار مختلفة عن نارنا ، وعلاقة الأجسام بها علاقة مختلفة .. وهى غيب .. وحقيقتها غيب .. ولا نستطيع أن نؤسس عليها حكماً .

ويقول المعترضون : إذا كانت النفس الواحدة تعود إلى الحياة أكثر من مرة لتعيش أكثر من شخصية وأكثر من دور .. فأى من تلك الشخصيات سوف يبعث ويحاسب ؟! وأى منها سوف يعتبر هو النفس ؟! ويجيب أصحابنا بأن النفس هى الذات العميقة وراء كل تلك الشخصيات ، وهى خارج الزمان والمكان .. وما حياتنا فى عالم الزمان والمكان إلا شخصيات وأدوار .. وما تلك الشخصيات إلا كلقطات كاميرا من زوايا متعددة تؤلف فى مجموعها ملامح تلك الذات الواحدة العميقة .. وما تلك الأدوار وتلك الشخصيات إلا سجل أعمال ودفتر يوميات واعترافات بخط اليد لتلك الذات الواحدة العميقة .. وهى التى سوف تبعث .. وهى التى سوف تحاسب . وسيؤسس الحساب فى النهاية على « الدوسيه » الكامل، وليس على صفحة واحدة أو دور واحد أو شخصية واحدة من السجل .

ويقول المعترضون: لقد بدأ الخلق بواحد هو آدم ، فمن أين جاءت الكثرة إذا صحت مزاعم القائلين بالتناسخ؟! والحوار بين

الجانبين يطول، والموضوع المحورى الذى يظل يدور حوله الجدل هو مفهوم العدل الإلهى.. ولكن ماذا يقول القرآن؟!.. إن بالقرآن آيات صريحة تقول بتعدد الحيوات.. يقول المجرمون بين يدى الله فى الآخرة.

﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر]

وهو كلام صريح يقول بالإماتة مرتين والإحياء مرتين.. وهى الآية التى تفتح الباب بالفعل لفكرة العودة للتجسد ولفكرة تعدد الفرص أمام النفس ولقد فهمها المفسرون الأقدمون فهماً مختلفاً فقالوا : إن الميتتين هما الموت والنوم.. ولو صدق هذا التفسير لوجب أن تكون الميتتان هما حال الجميع.. ولكن الله قال بصدد الصالحين كلاماً آخر.. فذكر فى كتابه إنهم :

﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) ﴾ [الدخان]

فتلك إذن موتة واحدة للصالحين ، برغم أنهم كانوا مثل الباقين ينامون.. فلا يمكن أن يكون ذلك الفهم صحيحاً.

والله فى القرآن يبدأ الخلق ثم يعيده.. ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) ﴾ [البروج] . ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾[الأعراف] .. ويتكرر هذا المعنى كثيراً بصياغات متعددة وبطريقة لافتة للنظر. ويقول الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [الإسراء] . وهو تحذير للأمة المسلمة كلها

من خلال الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الركون إلى الكفار عقابه هو أن يذوق الفاعل ضعف الحياة وضعف الممات .. فما هو ذلك الضعف ؟!

إنه نفس ما قاله المجرمون فى الآية الأولى : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (١١) ﴾ [غافر] . فتضعيف الحياة ليس إطالتها ، وإنما تعديدها . ثم إن الكافرين يسألون الله فى الآخرة أن يردهم ليعملوا صالحاً فيقول ربنا جل وعلا :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

وهؤلاء هم المجرمون بالحق والحقيقة ، وهم أهل النار الذين هم أهلها فعلا .. وإذا كان الله قد قال بشأنهم إنه لو ردهم لعادوا إلى غيهم ، فلعله سوف يقيم الحجة عليهم بأن يردهم بالفعل إلى تجسدات متعددة ، فيعاودون إجرامهم ويحق عليهم القول.. لأن سنة الله دائما أن يبطل حجة الكافر.. بدليل الآية السابقة الواردة بصدد المجرمين الذين يقفون فى ذلك بين يدى الله قائلين : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر] . ثم يقول الله عن خلقه :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) ﴾ [الإنسان] وفى سورة محمد الآية ٣٨ يخاطب المؤمنين :

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد] ومعنى ذلك أن الإبدال الأول غير الإبدال الثانى ، ففى الإبدال الأول مثلية .. فماذا يكون هذا الإبدال للشخوص بأمثالها؟!.. وفى آيات الواقعة ..الآية (٦٠، ٦١، ٦٢) .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [الواقعة] .. هل هذا الإبدال للشخوص بأمثالها ؟!.. هو العودة للتجسد الذى يقول به البعض :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ (أى بميلاد جديد) [النساء] وفى سورة الصافات يروى القرآن عن أهل الجنة يتحدثون : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات]

هكذا يرى قرينه الذى كان يغويه فى سواء الجحيم .. ثم يدور بينه وبين هذا الشيطان الحديث : ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) ﴾ [الصافات]

والمعنى واضح.. بل نحن ميتون أكثر من موتتنا الأولى ، ثم نحن مبعوثون إلى حساب وعذاب لِمَنْ يستحق العذاب. والكلام يشير إلى تعدد مرات الموت للنفس الواحدة. والموضوع كبير ولا يمكن الجزم فيه بشىء.. وهو مجال تأمل وتفكر.. والتعصب لأى موقف - مع أو ضد - هو اتجاه خاطىء .. فليس عند أى طرف من المتحاورين علم قاطع بشىء ، والمخاطبات التى تأتى من عالم

الغيب قد تكون ضلالات تبثها نفوس شيطانية تعبث بعقول الوسطاء.. وما جاء بالقرآن عن عالم ما بعد الموت هو من متشابه القرآن الذى يحمل أكثر من وجه من وجوه الفهم والتفسير، وليس من المحكم الذى لا خلاف عليه.. وهناك من آيات القرآن ما يقول بتعدد مرات الإحياء والإماتة، ومنها ما يقول بالموتة الواحدة وينفى أى قول بفرصة ثانية. وهكذا يسدل الله ستر الغيب على الموضوع كله، ويحتفظ بطلاقة المشيئة فيمن يعيد ومتى يعيد وهل يعيد أو لا يعيد.. ويريد لنا أن نعيش على تخوف ونحيا على حذر.. وذلك باب من أبواب رحمته .. ويظل الموضوع.. متاهة.. لا ينتهى فيها البحث.

كما يظل باباً للفتنة ويستغل أهل الملل الباطنية من شيعة ودروز وبهائية وماسونية هذا الباب المفتوح لاستدراج ضعاف الإيمان إلى إنكار القيامة والآخرة اكتفاء بما تعانيه النفس المذنبة من عودتها للتجسد فى الدنيا مرة بعد مرة.. فلا شىء عندهم غير الدنيا، والثواب فيها، والعقاب فيها.. وهو قول فاسد.. فما يجرى على النفس بعد الموت فى البرزخ أو فى الدنيا (وهو علامات استفهام) هو شىء غير القيامة الكبرى وغير يوم الجمع الذى تحشر فيه النفوس إلى ربها لتقف بين يديه.. وهو لب الإيمان الذى لا يصح دين إلا به لأنه «الدينوية» ذاتها.. ولأنه القول الفصل فى منازل النفوس ودرجاتها والحكم العدل فى مراتبها.

وإذا كان هناك مبرر لقبول هذه الشطحة التى يقول أصحابها بإمكان العودة للتجسد، فذلك لأنى أرى الله يقطع بها الذرائع

وينهى الحجج لمَنْ يتعلل بأنه لم تكن لديه الفرصة فى كذا أو الإمكانية لكذا .. فيعطيه الله هذه الفرصة.. أو تلك الإمكانية.. ثم تكون الوقفة الخاتمة التى ليس فيها كلام ! ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (١٠٥) ﴾ [هود]

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ﴾ [النبأ]

﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) ﴾ [طه]

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه]

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

بطلت الحجج .. وانتهت الذرائع.. وانقطعت الأسباب.. وجفت الأقلام.. وطويت الصحف.

تلك هى القيامة التى لا يقوم دين إلا بها ، ولا يقوم فكر دينى بدونها.. ومَنْ يبطلها يبطل الدين كله!

رقم الإيداع
٢٠٠٢/٣٦١٣
الترقيم الدولى
977 - 08 - 1098 - 3

" تم بحمدالله "

هذا الكتاب خاص بصفحة

Dr. Mostafa Mahmoud
